الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة

كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية

قسم: العلوم الإنسانية

شعبة: التاريخ

رحلة التيجاني دراسة في المنهج و المضمون

(706–708هـ/1306–1308م)

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذة :

*حاجي سعاد * د. بوسالم أحلام

لجنة المناقشة

أ د بوحسون عبد القادر	رئيـــــــــسا
د بوسالم أحلام	مشــرفا و مقررا
أ د بلعربي عبد القادر	عضوا و مناقشا

السنة الجامعية: 1447/1448هـ 2025/2026م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من كانا سندي ودعمي في كل خطوة، إلى أمي وأبي ، أغلى ما أملك في هذه الحياة، إلى من تعبا من أجلي وقدّما لي الحب والتشجيع دون حدود، أهدي ثمرة جهدي المتواضع، راجيا أن تكون مصدر فخر وسعادة لكما.

حفظكما الله وأطال في عمركما، وجزاكما عني كل خير.

شكر و عرفان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذة المشرفة أ.د. بوسالم أحلام، على ما قدمته لي من توجيهات ونصائح قيّمة، وعلى صبرها ومتابعتها المستمرة خلال إنجاز هذه المذكرة، فكان لإرشاداتها وملاحظاتها الأثر الكبير في إتمام هذا العمل.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة المحترمين، على تفضلهم بقبول مناقشة هذه المذكرة، وعلى ما سيقدمونه من ملاحظات وتوجيهات علمية تثري هذا العمل وتساهم في تطويره.

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر والعرفان إلى أساتذة تخصص العلوم الإنسانية، الذين لم يبخلوا علينا بعلمهم ومعارفهم، وأسهموا بتكويننا العلمي والفكري طوال مسيرتنا الجامعية.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني، من قريب أو بعيد، وقدم لي يد العون والتشجيع حتى يرى هذا العمل النور.

لكم مني جميعًا خالص الشكر والتقدير والاحترام.

مقدمة

تُعـرَّف رحلـة التيجـاني بأنهـا مؤلَّـف رحلـي وتاريخـي دوّن فيـه أبـو محمـد عبـد الله بـن محمـد التيجـاني مـا شـاهده وعاينـه مـن أحـوال بـلاد المغـرب خـلال تنقلـه بـين عـدد مـن مـدنها ومناطقها.

وقـد قـام التيجـاني برحلتـه خـلال الفـترة الممتـدة بـين سـنتي 706 و708هـ، الموافقـة لـ1306 و1308م، وسـجّل خلالهـا مشـاهداته وأخبـاره ومـا وقـف عليـه مـن أحـداث وأحـوال في المنـاطق الـتي مـرّ بهـا، ممـا جعـل رحلتـه مصـدرًا ذا قيمـة للبـاحثين في تاريـخ بـلاد المغـرب وحضارتها.

-أهمية الموضوع:

تكمـن الأهميـة العلميـة لهـذه الدراسـة في كونهـا تقـدم للقـارئ مـادة معرفيـة دسمـة تفيـده في فهـم عـدة جوانـب مـن تاريـخ المغـرب الاسـلامي في العصـر الوسـيط. والتعريـف بإحـدى أهـم المصـادر التاريخيـة الـتي يلجـأ اليهـا البـاحثون لدراسـة تاريـخ المغـرب الاقتصـادي والثقـافي وحـتى السياسـي، وتـبرز أهميتهـا في تسـليط الضـوء علـى رحلـة التجـاني ومـا تضـمنته مـن معلومـات غزيرة وثقها من خلال رحلته ومشاهداته والتي جمعت بين الجانب الأدبي والتاريخي.

-أهداف الموضوع:

تهـدف هـذه الدراسـة إلى التعريـف برحلـة التيجـاني وصـاحبها، وإبـراز قيمتهـا التاريخيـة والأدبيـة كمصـدر مهـم لدراسـة تاريـخ المغـرب الإسـلامي في العصـر الوسـيط، مـن خـلال

الكشف عن أهم المعلومات التي قدمها حول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية، وبيان أهمية المشاهدة والوصف في توثيق الحياة والمجتمع آنذاك.

-أسباب اختيار الموضوع:

تنقسم أسباب اختيارنا لهذا الموضوع الى ذاتية وموضوعية، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

الأسباب الذاتية:

الميول الى الترحال وحب اكتشاف الأمكنة والمجتمعات، ومختلف الأجناس، وعاداتهم وتقاليدهم وأهم المظاهر الحضارية الخاصة بهم ومنه الميول الى المصادر ذات الصلة بهذا المجال.

الاسباب الموضوعية:

- الرغبة في التعرف على نوع أعتبره مقارنة بخبرتي المحتشمة في هذا الميدان جديد ومختلف على المصادر التاريخية التقليدية، خاصة أن كتب الرحلة تقدم للباحث مادة معرفية ومعطيات جديدة غير مقصودة للتأريخ، تميط اللثام على الكثير من الجوانب في مختلف المجالات.

التعرف على كتب الرحلة وكيفية الاستفادة منها في رصد الحقائق التاريخية، من خلال دراسة ما تتضمنه من مشاهدات وأخبار ووصف للأماكن والمجتمعات.

الرغبة في التعرف على التيجاني كرحالة ومؤرخ ومضامين رحلته، والاستفادة من المعلومات التي جاء بها واستغلالها لدراسة جوانب من تاريخ وحضارة بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

-الدراسات السابقة:

هناك مجموعة من الدراسات تناولت موضوع بحثنا بالدراسة بشكل مباشر وغير مباشر ولعل أهمها:

دراسة بوشايب أسماء وعلجية والطيب زريمش والتي تحمل عنوان: قراءة في أدب الرحلة: رحلة التجاني أنموذجًا، والتي أفادتنا في التعرف على جوانب من حياة عبد الله التيجاني العلمية، ومكانته، ونشاطه الفكري، بما يساعد على تكوين صورة أوضح عن شخصيته العلمية.

أيضا دراسة للباحثين علي إبراهيم كردي، وسعاد ترشاق، الرحلات المغربية القديمة بين الأدب والنقد: رحلة التجاني أنموذجا، في الوقوف على أهم الظروف السياسية والفكرية التي أحاطت بعصر التيجاني، وفهم البيئة التي نشأ وعاش فيها، وما كان لها من أثر في تكوين شخصيته وفي مضمون رحلته.

- الإشكالية:

تعد رحلة عبد الله بن محمد التيجاني من المصادر التي تتيح التعرف على جوانب متعددة من تاريخ بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، لما تتضمنه من أخبار

ومشاهدات ووصف للأماكن والمجتمعات، فإلى أي مدى يمكن اعتبار رحلة عبد الله بن محمد التيجاني مصدرًا موثوقًا لدراسة واقع بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وما المنهج الذي اعتمده في نقل مشاهداته وتدوين أخباره؟

-التساؤلات الفرعية:

ماهو الإطار العام الذي تشكّلت فيه رحلة التيجاني من حيث شخصيته وسياقها التاريخي وقيمتها العلمية؟

ماطبيعة المنهج الذي اعتمده التيجاني في تدوين رحلته، وكيف تجلت ملامحه في وصفه وتحليله؟

ماهي أهم المضامين الحضارية التي عكستها رحلة التيجاني على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية؟

-المنهج:

المنهج التاريخي: من خلال تتبع السياق الزمني والسياسي الذي كُتبت فيه الرحلة، وتحليل الأحداث وربطها بظروف العصر.

المنهج الوصفي التحليلي: من خلال وصف مضامين الرحلة وتحليلها للكشف عن أبعادها الحضارية ودلالاتها المختلفة.

– الخطة:

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيم الدراسة إلى ثلاثة فصول متكاملة، حيث خُصّص الفصل الأول للإطار العام لرحلة التيجاني، من خلال التعريف بصاحب الرحلة وسياقها التاريخي وقيمتها العلمية، بينما تناول الفصل الثاني منهج التيجاني في رحلته، من حيث مصادره وأسلوب توثيقه ونظرته النقدية، إضافة إلى منهجه في الوصف الجغرافي والعمراني. أما الفصل الثالث، فقد خُصّص لدراسة مضامين الرحلة وأبعادها الحضارية، من خلال تحليل الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وذلك قصد الوصول إلى رؤية شاملة حول طبيعة هذه الرحلة وأهميتها العلمية.

–الصعوبات:

واجهت هذه الدراسة مجموعة من الصعوبات التي أثّرت في الجانب المنهجي، من أبرزها قلة الدراسات المتخصصة التي تناولت رحلة التيجاني بشكل معمّق، مما صعّب الإحاطة الشاملة بالموضوع، إضافة إلى ندرة المراجع الحديثة التي تعالج أدب الرحلات المغاربية بصفة عامة.

كما برزت صعوبة التمييز بين ما هو قائم على الملاحظة المباشرة لدى الرحالة وما هو منقول عن مصادر أخرى، وهو ما يطرح إشكالا في تقييم مدى دقة المعلومات.

إلى جانب ذلك، واجهت الدراسة بعض الغموض في تحديد أسماء الأماكن الجغرافية القديمة وربطها بمسمياتها الحالية، فضلًا عن تداخل الطابع الأدبي مع الطابع

التاريخي في نص الرحلة، مما تطلب جهدًا تحليليًا مضاعفًا لفصل الوصف الأدبي عن المعطيات التاريخية.

-المصادر والمراجع:

اعتمدت لانجاز هذه الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع التي أسهمت في بناء الإطار النظري والتحليلي للموضوع من بينها:

-علي إبراهيم كردي، أدب الرحلة في المغرب والأندلس: أفادنا في التعرف على نشأة أبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، وظروف حياته وتكوينه.

أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، رحلة التيجاني: أفادنا في التعرف على أهم مؤلفاته والتعرف على إنتاجه العلمي والأدبي.

-ترشاق سعادة، الرحلات المغربية القديمة بين الأدب والنقد الإثنوغرافي: رحلة التيجاني (التقييد) أنموذجًا: أفادتنا في المقارنة بين مشاهدات التيجاني المباشرة وما أورده من روايات وأخبار منقولة، والوقوف على مدى اعتماده على كل منهما في بناء مادة رحلته.

الفصل الأول: الإطار العام لرحلة التيجاني

1- التعريف بصاحب الرحلة

1-1 نسبه ونشأته وحياته العلمية

1-2 مكانته العلمية ومؤلفاته

2-2- الظروف السياسية والفكرية لعصره

2- التعريف بالرحلة وسياقها التاريخي

2-1- دوافع الرحلة وأهدافها

2-2 المسار الجغرافي للرحلة

2-3 القيمة التاريخية للرحلة كمصدر

تسعى هذه الدراسة إلى تأطير رحلة عبد الله بن محمد التجاني من خلال تسليط الضوء على شخصيته، مكانته العلمية، والظروف السياسية والفكرية التي أحاطت بنشأته وتكوينه، إلى جانب استعراض أبرز مؤلفاته وموقعه العلمي بين علماء عصره.

كما تتناول الدراسة الرحلة ذاتها من حيث دوافعها، أهدافها، ومسارها الجغرافي، مبرزة قيمتها التاريخية كمصدر محوري لكشف خبايا الأوضاع السياسية والاجتماعية والعمرانية في المغرب الإسلامي وإفريقية، بما يسهم في فهم أبعادها المعرفية والتاريخية ضمن سياقها الشامل.

1- نسبه ونشأته:

يعتبر أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني من أعلام الفكر والأدب في العصر الحفصي، وقد ولد بمدينة تونس[1]، عاصمة الدولة الحفصية، ما بين سنتي 670 و675هـ الموافق لـ1272–1276م، في مرحلة تميزت بازدهار الحياة العلمية والثقافية بالمغرب الإسلامي.

نشأ في بيت علم وأدب، إذ تربّى في كنف والده الذي كان أديبًا عالمًا، فكان لذلك أثر عميق في توجيه مساره العلمي منذ الصغر، حيث تلقّى عنه مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وتشرّب أسس البيان واللغة[2].

[1] تقع البلاد التونسية في أقصى شرق جزيرة المغرب، وتعتبر منطقة فريدة من نوعها داخل شمال إفريقيا لما تمتلكه من خصائص طبيعية وبشرية متميزة. فهي تربط بين قارتي إفريقيا وأوروبا، حيث يفصلها عن جزيرة صقلية أقل من 140 كيلومترًا، وعن جزيرة سردينيا أقل من 200 كيلومتر، مما جعلها على مر العصور موقعًا استراتيجيًا مطمعًا للقوى الإمبريالية الكبرى مثل الفنيقيين والرومان والعرب والإسبان والأتراك. تمتاز تونس بسواحلها الطويلة التي تصل إلى حوالي 1300 كيلومتر، وهي سواحل آمنة ومضيافة، بخلاف السواحل الشمالية للجزائر المجاورة، والتي تتسم بالوُعْرة وقساوة الطقس. كما تتنوع تضاريس البلاد بين سهول واسعة وتلال منخفضة، حيث لا يزيد ارتفاع نصف مساحة البلاد عن 200 متر فوق سطح البحر، ويبلغ متوسط ارتفاعها نحو 300 متر، ما يسهل حركة التنقل ويعزز الوحدة البشرية والسياسية، ينظر: محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس**، ط3، دار، سراس للنشر، تونس، 1993م، ص8.

[2] -علي إبراهيم كردي، **أدب الرحلة في المغرب والأندلس**، الهيئة العامة السورية للكتاب - 2013م، ص40.

1-حياته العمية:

تُبرز حياة أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد ابن أبي القاسم التجاني العلمية ملامح شخصية موسوعية تَكوَّنت في بيئة علمية مزدهرة هي تونس الحفصية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، فقد نشأ في بيت علم، فتلقى عن والده مبادئ الأدب والتاريخ والفقه والحديث والتفسير، وهو تكوين مبكر أرسى لديه أساسًا متينًا في العلوم الشرعية واللغوية، ثم واصل تحصيله على أيدي نخبة من علماء تونس، فتنوعت معارفه واتسعت مداركه، وجمع بين الرواية والدراية، وبين الثقافة الدينية والتمكن الأدبي، وقد انعكس هذا التكوين الشامل على أسلوبه، إذ برع في فنون الكتابة والإنشاء، وتميّز بدقة العبارة، مما أهّله لتولي مهام كتابية رفيعة، وتجلّى نبوغه العلمي والأدبي حين فُوِّض إليه الإشراف على رسائل الأمير أبو يحيى زكرياء اللحياني[1]، فكان كاتبه المقرّب وموضع ثقته[2].

[1] الأمير أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي اللحياني المغربي يُعد من أبرز شخصيات الأسرة الحفصية في المغرب وتونس، حيث يجمع بين الأصول الملكية والنسب العريق الذي يعكس امتداد السلطة والسيادة في هذه الأسرة. وُلد في تونس قبل سنة 650هـ، ونشأ في بيئة ملكية وإميرية صقلت شخصيته وأكسبته معرفة واسعة بالشؤون السياسية والإدارية، إضافة إلى ثقافة دينية رصينة، درس علوم الفقه واللغة العربية، ما جعله أهلًا للتعامل مع القضايا الدينية والقانونية، وجعل منه شخصية علمية ودينية محترمة، يحظى بتقدير كبير من ملوك تونس ونخبتها، وذلك لما عرف عنه من علم وفطنة وورع. امتازت حياة الأمير أبو يحيى زكريا بتوازن فريد بين العلم والسياسة، حيث استطاع أن يجمع بين المعرفة الدينية والفقهية وبين فنون الحكم والإدارة، ما أكسبه محبة العامة والنبلاء على حد سواء. وقد لعب دورًا مهمًا في توطيد السلطة الحفصية واستقرار الحكم في تونس، حيث شارك في صنع القرار ومتابعة شؤون الدولة بوعي وحكمة. وبايعه أهل تونس على الملك، اعترافًا بكفاءته وعدله وحكمته، ومؤكدين بذلك الثقة التي كانوا يضعونها في رجالات الأسرة الحفصية لتولي شؤون الحكم والإدارة في بلادهم، وهو ما يبرز أثره البارز في التاريخ السياسي والاجتماعي لتونس والمغرب في تلك الحقبة. ينظر: ابن كثير(ت) - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي،(774هـ) البداية والنهاية، دار عالم الكتب، 1424هـ / 2003م، ج 18/ 283.

[2] علي إبراهيم كردي، المرجع السابق، ص41.

كما رافقه في رحلته الشهيرة بين سنتي 706هـ و708هـ، وهي تجربة علمية وثقافية خصبة مكّنته من الاحتكاك بمناطق مختلفة وتوسيع أفقه المعرفي، فازدادت خبرته بالتاريخ والبلدان وأحوال الناس، وهكذا تبلورت شخصيته عالِما أديبًا جمع بين التحصيل النظري والممارسة العملية، وأسهم بعلمه وقلمه في خدمة الحياة الفكرية والإدارية في ظل الدولة الحفصية[1].

1-1- مكانته العلمية ومؤلفاته

يعد الشيخ محمد التجاني من أبرز علماء القرن السابع الهجري في المغرب العربي، خاصة في تونس وإقليم طرابلس، وكان عالماً متعدد الاختصاصات، جامعًا بين العلوم الشرعية، البلاغة، الأدب، والتراجم، اتسمت مؤلفاته بسعة الاطلاع ودقة البحث: فقد اهتم بالعلوم الإسلامية كافة، من الحديث والفقه إلى الأدب والتراجم، مع الحرص على صحة النقل ومراجعة الأخبار.

[1] الدولة الحفصية هي الدولة الإسلامية الرابعة التي قامت في البلاد التونسية بعد الفاتحين، والأغالبة، والحماديين، وقد امتد حكمها لما يقارب 347 سنة هجرية (634 – 981 هـ / 1237 – 1573 م)، لتشكل فترة مهمة في تاريخ شمال إفريقيا من حيث الاستقرار السياسي والتطور الاقتصادي والاجتماعي، أسس هذه الدولة أبو زكرياء يحي الحفصي، وهو ابن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، المنتمي إلى قبيلة هنتاتة البربرية، إحدى فروع المصامدة التي كانت تقيم في المغرب الأقصى. تمكن الحفصي من إعلان استقلاله وتأسيس دولته بينما كان والياً على البلاد التونسية تحت الدولة الموحدية، التي كانت قد سيطرت على المنطقة منذ سنة 555 هـ / 1160 م. استغل الحفصي ضعف الدولة الموحدية وتراجع سلطة خلفائها، مما أتاح له الفرصة للإعلان عن استقلاله دون مقاومة، فاستقرت البلاد تحت حكمه طائعة. تميزت الدولة الحفصية خلال عهدها بالتوسع في الزراعة والتجارة، خاصة مع انتشار الزراعة الوافدة من المغرب العربي وتوسيع النشاط التجاري عبر البحر الأبيض المتوسط، كما اهتم حكامها بتنظيم الإدارة وتحصين المدن ومراكزها العمرانية، إلى جانب تعزيز الثقافة الإسلامية والفكر العلمي، مما جعل من تونس آنذاك مركزًا حضاريًا وسياسيًا بارزًا في المنطقة.ينظر: أحمد بن عامر، **الدولة الحفصية**، صفحات خالدة من تاريخنا المجيد، الاتحاد العام التونسي للشغل، أكتوبر 1974م، ص17، بوشايب أسماء علجية، الطيب زريمش، **قراءة في أدب الرحلة "رحلة التجاني أنموذجا"**، مجلة آفاق علمية، مج 15، ع 02، جامعة، الجزائر 2، الجزائر، 2023م، ص402.

التنوع المعرفي: كتب في البلاغة، الأدب، شرح الألفيات، التراجم، وحياة العلماء، حتى وصل به الاهتمام إلى مسائل اجتماعية وأخلاقية كالمرأة وآداب المعاشرة.

الابتكار في الكتابة العلمية: حيث مزج بين الشرح العلمي وبين التعليق الأدبي والنقد اللغوي، مع الاهتمام بالأخبار التاريخية والقصصية[1].

أثره على الدراسات اللاحقة: على الرغم من ضياع الكثير من مؤلفاته، إلا أن ما وصلنا منها يشهد بسعة اطلاعه وفهمه العميق للتراث العربي الإسلامي، وقد أشار إليه المؤرخون مثل ابن خلدون.

1-2- أهم مؤلفاته:

1. أداء اللازم في شرح مقصورة حازم شرح لألفية أبي الحسن حازم القرطاجني (المتوفى 684هـ). صنفه التجاني حوالي سنة 699هـ، أي عندما كان في العشرين تقريبًا. الكتاب مفقود حاليًا، وكان يُعنى بالبلاغة والمتانة الأدبية، امتدحه الخليفة الحفصي محمد المستنصر بالله.

2. الوفا ببيان فوائد الشفا شرح لكتاب الشفا للقاضي أبي الفضل عياض: يبرز دقة التجاني في النقل والتمحيص النقدي للأحاديث والقصص، وينبه إلى الأحاديث الضعيفة[2].

موجود جزئيًا في مكتبة جامع الزيتونة بتونس، ويعد من أمتع شروح الشفا، أظهر فيه التجاني نقده اللغوي، مثل استخدام كلمة "سائر" في الشعر العربي.

3. الدر النظيم في الأدب والتراجم: جمع فيه أخبار أدباء الدولة الحفصية قبل عصره. الكتاب مفقود، وكان له قيمة كبيرة لفهم الحركة الفكرية في بداية العصر الحفصي.

[1] علي إبراهيم كردي، المرجع السابق، ص41.

[2] أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، **رحلة التجاني**، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1981، ص37.

4. تقييد على صحيح مسلم ومسند البخاري كتب التقييد أثناء إقامته بطرابلس سنة 707هـ. مفقود حاليًا، ولكنه يعكس اهتمامه بالحديث الشريف ودقته العلمية في تسجيل الأحاديث وتفسيرها.

5. نفحات النسرين مجموع أدبي ضخم جمع فيه المخاطبات مع الأديب الأندلسي محمد بن أحمد بن شبرين الجذامي. يعكس الثقافة الأدبية والبلاغية للتيجاني، مع اهتمامه بالأدب الأندلسي[1].

6. العلامة ترجم فيه للكتاب الذين تولوا وظائف ديوان الرسائل في الدولة الحفصية، مثل ابن الآبار وابن الخباز. مهم لدراسة التنظيم الإداري وأدباء الدولة الحفصية.

7. تحفة العروس ونزهة النفوس صنف أدبي رائق حول معاشرة النساء وآدابهن، مع استعراض للأخلاق والفضائل. ضمّ خمسة وعشرين بابًا، شمل العفاف، الزينة، حقوق المرأة، والملح والمفاكهات بطريقة علمية وأدبية. بين فيه التجاني أن الغرض علمي ونظري، وليس كتابًا للمجون، وهو يوضح حرصه على تقديم الأدب بطريقة راقية وعلمية[2].

2-2- الظروف السياسية والفكرية لعصره

ونظرا إلى نبوغه الفذ وسعة اطلاعه على العلوم الشرعية والأدبية واللغوية، حظي الشيخ محمد التجاني بعناية خاصة من قبل السلطة الحفصية، إذ اختاره الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحياني مرافقًا له في رحلته لتفقد أركان الدولة، وعينه كاتبًا خاصًا له سنة 706 هـ / 1306م، وهو منصب يعكس الثقة العالية التي حظي بها التجاني، ويؤكد مكانته العلمية والفكرية الرفيعة، وقدرته على التعامل مع

[1] التجاني، المصدر السابق، ص 38.

[2] التجاني، المصدر نفسه، ص39.

القضايا الإدارية والسياسية الدقيقة في الدولة، وبعد عودته إلى العاصمة تونس في صفر من سنة 708 هـ / 1308م[1].

تولى رئاسة ديوان الرسائل، الذي كان مركزا محوريا في تنظيم مراسلات الدولة وإدارة شؤونها الرسمية، وظل في هذا المنصب حتى سنة 717 هـ / 1317م، حين اندلعت اضطرابات في أركان الدولة، واختفى على إثرها ذكره، ليترك أثره التاريخي مرتبطًا بفترة استقرار الدولة وحيوية دور العلماء في المرافق الإدارية والسياسية، وعلى الصعيد العلمي والفكري، خلف التجاني إرثا زاخرا من المؤلفات في اللغة والأدب والبلاغة والتراجم، تكشف عن تمكنه العميق من العلوم المختلفة، وتدل على طول باعه في الأدب وسعة اطلاعه على التراث العربي الإسلامي، فقد برز في التحقيق اللغوي والبلاغي كما في كتابه أداء اللازم في شرح مقصورة حازم، وأبدع في جمع أخبار الأدباء والتراجم كما في كتابه الدر النظيم، كما أظهر اهتمامه بالعلوم الشرعية والحديثية في شروحه على كتب مثل الوفا ببيان فوائد الشفا، مع دقة نقدية وإحاطة علمية واضحة[2].

كما لم يغفل الجانب الأخلاقي والاجتماعي، فظهر ذلك في مؤلفه تحفة العروس ونزهة النفوس، الذي تناول فيه آداب النساء وصفات الفضائل والعيوب، مصحوبة بالأمثلة القرآنية والحديثية والحكايات الأدبية. ويظهر من هذا التنوع في مؤلفاته أنه لم يكن مجرد عالم منفصل عن مجتمعه، بل كان عالما موسوعيًا فائق المعرفة، يجمع بين العلم والبلاغة والأدب، وبين الفكر والسياسة والخدمة العامة، مما جعله شخصية محورية في عصره، وعلمًا مرجعياً لفهم الحركة الفكرية والثقافية والإدارية في الدولة

[1]علي إبراهيم كردي، المرجع السابق، ص41.

[2]علي إبراهيم كردي، المرجع نفسه، ص42.

الحفصية، حيث انعكست علومه ومؤلفاته على كل مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في شمال إفريقيا خلال القرن السابع الهجري[1].

2- التعريف بالرحلة وسياقها التاريخ

2-1 - دوافع الرحلة وأهدافها

تُعد رحلة الشيخ محمد التجاني من أبرز الأعمال التي تجسد التلاقي بين الواقع التاريخي وأدب الرحلة، فهي تندرج ضمن ما يُعرف بـ"الرحلة السفارية"، أي الرحلة التي يقوم بها الرحالة بتكليف من ولي الأمر، في هذه الحالة الأمير زكريا بن اللحياني، لتفقد أركان الدولة الحفصية والاطلاع على أحوالها الإدارية والاجتماعية والسياسية، وقد ميزت هذه الرحلة التجاني عن غيره من الرحالة، إذ لم تكن مجرد تسجيل تسجيلي لأماكن وزمن الرحلة، بل امتدت لتشمل الرصد الجغرافي، السرد الأدبي، والتوثيق التاريخي والاجتماعي، بحيث رسم التجاني خريطة متكاملة للمكان بأسلوب ذاتي يعكس ثقافته ومعرفته العميقة بالتراث العربي الإسلامي ومكوناته الثقافية والاجتماعية[2].

وقد وظف التجاني في رحلته جميع أشكال السرد، مستعينا بعناصر الأدب الشعري والنثري، والحكايات التاريخية، والسلوك الاجتماعي للأفراد والمجتمعات، مما جعل الرحلة تخرج عن كونها مجرد سرد للأماكن إلى عمل فني متكامل يزخر بالتنوع الأدبي وغير الأدبي.

[1]علي إبراهيم كردي، المرجع السابق، ص42. ترشاق سعاد، **الرحلات المغربية القديمة بين الأدب والنقد الإثنوغرافي رحلة التجاني أنموذجا"**، مجلة التراث، ع 31، مج1، أوت 2019، ص 6.

[2]ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص 6.

وعبر هذا المزيج، استطاع أن يقدم رؤية متكاملة عن جغرافيا المغرب الاسلامي، وطبيعة المدن والممالك، وأحوال القادة وأبرز الشخصيات، وحركة الثقافة والأدب في العصر الحفصي، كما ركز التجاني على توثيق الأحداث التاريخية والوقائع الاجتماعية، مع حرصه على نسب الأخبار والشعر والنثر إلى أصحابها بدقة، بما يعكس اهتمامه بالمنهجية العلمية والصدق التاريخي[1].

وبذلك، لم تقتصر رحلة التجاني على الجانب الجغرافي أو الإداري، بل أصبحت مرجعًا غنيًا للفكر التاريخي والأدبي والجغرافي، يتيح للدارسين فهم العلاقات الاجتماعية والسياسية، ومستوى الثقافة والعلوم في شمال إفريقيا خلال القرن السابع الهجري. إن ما يميز رحلة التجاني حقًا هو قدرتها على الجمع بين المعلومة العلمية الدقيقة والأسلوب الأدبي الجذاب، بحيث يستطيع القارئ أن يلمس الواقعية في وصف الأماكن والوقائع التاريخية، مع النكهة الأدبية في السرد والحكاية، مما يجعلها نموذجًا رائعًا للرحلة التي تتجاوز وظيفة التوثيق لتصبح مصدرًا معرفيًا متكاملاً يمزج بين العلم والفن والأدب[2].

[1] ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص7.

[2] ترشاق سعاد، المرجع نفسه، ص7.

2-2- المسار الجغرافي للرحلة

انطلقت رحلة التجاني رفقة الأمير أبو يحي زكرياء اللحياني في آخر جمادى الأولى سنة 708هـ من مدينة تونس، لتأخذ الركب مسارًا شماليًا ثم شرقيًا في أولى محطاتها عند رادس، حيث بدأ التجاني برصد وتوثيق البيئات والقرى والمنازل التي مر بها، ثم اتجه الركب نحو مدينة سوسة، وبعدها إلى صفاقس، ليصل بعد ذلك إلى قابس، التي كانت محطة أساسية للرحلة قبل الانتقال إلى جزيرة جربة حيث أمضى التجاني خمسة وستين يوما مشاركًا في حصار حصن قشتيل[1].

وبعد فشل الجيش في السيطرة على الحصن، عاد الركب إلى قابس ومن هناك اتجه غربًا نحو البلاد الجريدية بهدف جباية الأموال، حيث سجل التجاني ملاحظاته حول الطبيعة العمرانية والاجتماعية للمنطقة، ثم عاد الركب إلى قابس[2] حيث انفصل الجيش عن رفقاء التجاني، ليواصل

[1] حصن قشتيل أو برج القسطيل هو حصن أثري يقع في منطقة راس القسطيل بجزيرة جربة التونسية، ويعود بناؤه إلى فترة سيطرة مملكة صقلية على الجزيرة في القرن الثالث عشر الميلادي. ويُعد الحصن مثالًا واضحًا على التحصينات العسكرية التي شُيدت لحماية الجزيرة ومراقبة سواحلها، وقد خضع للترميم في القرن السادس عشر الميلادي بأمر من أمير البحر العثماني درغوث رئيس لتعزيز الدفاعات البحرية. يتميز البرج بموقعه الاستراتيجي وتصميمه المعماري الذي يعكس أساليب البناء العسكرية في العصور الوسطى، وقد تم إدراجه في عام 2023 ضمن قائمة اليونسكو للتراث العالمي كجزء من الجزيرة، اعترافًا بقيمته التاريخية والشاهد على نمط الإعمار في البيئات الترابية الجزرية. Archiqoo، برج القسطيل، 2016، 11:43، مقال على موقع

https://archiqoo.com/locations/borj_el_kastil_ar.php

[2] تقع مدينة قابس في منطقة بلاد الجريد، وتبعد عن مدينة طرابلس نحو ثمانية أيام سفر، وتعتبر قابس مدينة كبيرة قديمة، عريقة في تاريخها وأزلية في وجودها، حيث تشتهر بسورها الصخري الجليل الذي يعود بناؤه إلى أقدم العصور، والذي يمثل عنصرًا دفاعيًا حيويًا لحماية أهلها. وداخل هذا السور يوجد حصن حصين وأرباض واسعة كانت مركزًا للحياة الاجتماعية والتجارية في المدينة، إلى جانب فنادق وحمامات تدل على تطور بنيتها وخدماتها عبر الزمن. أحاط السكان بالمدينة خندق كبير يُملأ بالماء عند خوفهم من أي غزو، ليكون هذا الخندق أقوى وسيلة دفاعية ضد الأعداء، ما يجعل المدينة من بين أكثر المدن تحصينًا في المنطقة. وتمتاز قابس أيضًا بموقعها الطبيعي، إذ يمر بها وادٍ مهم يروي بساتينها وأراضيها ومزارعها الغنية، ويعود مصدر هذا الوادي إلى عين خرارة، مما جعل المدينة مركزًا للزراعة وتوفير المياه في بيئة جافة نسبياً، كما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية فيها، ينظر: مجهول(ت)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م. ص. 112.

هو رحلة الحج رفقة الأمير اللحياني، مختارًا منطقة غمراسن للإقامة لأربعة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا، قبل الانتقال إلى زنزور حيث أقام مدة شهرين واثنين وعشرين يومًا. وحين وصلتهم أنباء مقتل السلطان أبي يعقوب المريني وولده، وغياب الركب المشارقي، اضطر التجاني إلى التوجه إلى طرابلس للإقامة حتى يمكن استكمال رحلة الحج في عام 708هـ[1].

ومع استئناف الركب لمسيرته شرقًا لأداء الفريضة، أصيب التجاني بمرض اضطره إلى العودة إلى تونس، مرورا بـ المهدية[2] وسوسة[3]، حيث استمر في وصف المدن والقرى والمواضع التي حل بها، ليختتم رحلته التي استغرقت عامين وثمانية أشهر، تاركًا توثيقًا غنيًا بالمعالم العمرانية والطبيعية، وعيون الماء، والقصص والأحداث المحلية، إلى جانب الشعر والأخبار، ليقدم بذلك

[1] بوشايب أسماء علجية، المرجع السابق، ص 402.

[2] المدينة التي تقع على بعد أربعة أميال من القيروان والتي بناها إبراهيم بن أحمد، تعتبر من المدن ذات الأهمية التاريخية في المغرب الاسلامي، خاصة في الحقبة الإسلامية المبكرة. إبراهيم بن أحمد، الذي ينتمي إلى الأسرة الأموية أو العباسية بحسب السياق الزمني، أسس هذه المدينة لأغراض استراتيجية ودينية، حيث كانت المدن القريبة من القيروان غالبًا ما تُنشأ لتكون مراكز للحكم المحلي، أو لمراقبة الطرق التجارية، أو لتأمين المناطق الزراعية المحيطة، الموقع الذي يبعد أربعة أميال عن القيروان يعكس تخطيطًا دقيقًا، إذ كان قريبًا بما يكفي للاستفادة من الحياة الاقتصادية والثقافية للقيروان، وفي الوقت نفسه بعيدًا بما يكفي ليتمتع بالاستقلالية الإدارية والعسكرية. من المرجح أن المدينة اشتُهرت بالزراعة، وبناء القصور والمساجد، وربما كانت نقطة توقف للقوافل التجارية القادمة من شرق وغرب المغرب الاسلامي، كما أن بناء المدينة يعكس اهتمام الحكام بتوسيع النفوذ الحضري والديني، إذ كانت القيروان مركزًا علميًا ودينيًا هامًا، ومن ثم فإن إنشاء مدينة جديدة بالقرب منها كان وسيلة لتعزيز السلطة السياسية والدينية لإبراهيم بن أحمد: انظر: البكري أبي عبيد الله(ت)، **المسالك والممالك**، تح: جمال طلبا، دار الكتب العلمية، بيروت 2003م، ص200، إدريس عبد النبي حامد الجوبر وآخرون، **تأسيس مدينة المهدية دراسة في النشأة التاريخية والعناصر المعمارية**، المجلة الليبية العالمية، جامعة بنغازي، ع66، ديسمبر، 2022، ص3.

[3] عرفت تاريخيًا باسم أبولونيا نسبةً إلى الإله الإغريقي أبولو، تعد واحدة من المدن التاريخية المهمة في شمال شرق ليبيا. وقد كان هذا الاسم سببًا في استقطاب الإغريق إليها، لما لها من أهمية دينية وتجارية في البحر المتوسط. تقع سوسة على الساحل الشمالي الشرقي للبلاد، ضمن الشريط الساحلي لإقليم الجبل الأخضر، وتمتاز بموقعها الاستراتيجي في منطقة سهلية ذات سطح مستوٍ محصورة بين البحر المتوسط من جهة، وحافة هضبة الجبل الأخضر من جهة أخرى، هذا الموقع منحها أهمية اقتصادية كبيرة، خاصة في مجالات التجارة والصيد والزراعة، كما جعلها نقطة التقاء حضارات متعددة عبر التاريخ، من الفينيقيين والإغريق والرومان، إلى الحضارة الإسلامية لاحقًا، مما أكسبها طابعًا حضاريًا متنوعًا وغنيًا.أنظر: خالد محمد بن عمور، **السياحة التراثية المستدامة بمنطقة سوسة الواقع والأفاق**، مجلة المختار للعلوم الإنسانية 07 ع ع د (1)، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عمر المختار – البيضاء، 2008م، ص67.

صورة شاملة ودقيقة عن بلاد المغرب والبلاد التونسية والطرابلسية خلال أواخر القرن السابع الهجري[1].

2-3- القيمة التاريخية للرحلة كمصدر

تُعدّ رحلة التيجاني من المصادر التاريخية المهمة، لما تتضمنه من معلومات متنوعة تتجاوز السرد الشخصي إلى توثيق جوانب متعددة من الحياة في شمال إفريقيا والمغرب العربي خلال عصره. فقد اهتم بوصف المدن والطرق والمسافات، ورصد المعالم العمرانية والطبيعية، كالأَسوار والمساجد والحمامات والمدارس، إلى جانب اهتمامه بأحوال السكان وأصولهم وتنقلاتهم، كما يتضح في حديثه عن سكان جزيرة باشو بعد تعرضهم للاضطهاد على يد يحيى بن إسحاق الميورقي. كما جمع التيجاني بين الوصف التاريخي واللغوي والأدبي، من خلال تفسير أسماء بعض المدن وذكر النباتات التي اشتهرت بها، مما منح رحلته قيمة معرفية تجمع بين دقة التوثيق وجمالية التعبير.[2].

كما أظهر اهتمامًا بالجانب الاجتماعي والأنثروبولوجي من خلال وصفه العادات والتقاليد وأنماط الحياة والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية لسكان المناطق التي زارها، ما يجعل رحلته مرجعًا غنيًا لدراسة المجتمعات القديمة وسلوكياتها وثقافتها. وعلاوة على ذلك، فإن المزج بين السرد والوصف والتحليل والمقارنة يعكس قدرة الرحالة على تقديم صورة شاملة عن الواقع المعيش، ما يؤكد أن الرحلة لم تقتصر على الجانب الأدبي أو الجمالي، بل كانت وثيقة تاريخية شاملة تتيح للدارسين والمؤرخين الحصول على معلومات دقيقة وموثوقة حول شمال إفريقيا والمغرب العربي، من حيث الجغرافيا، السكان، الحضارة، والتاريخ المحلي[3].

[1] بوشايب أسماء علجية، المرجع السابق، ص403.

[2] ا بوشايب أسماء علجية، لمرجع نفسه، ص404.

[3] ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص7.

وبـذلك، تعكـس رحلـة التجـاني لـيس فقـط مهـارة الرحالـة الأدبيـة، بـل أيضًـا حِرصـه العلمـي في تـدوين كـل مـا شـاهده وسمعـه، مؤكـدًا علـى أهميتهـا كمرجـع لا غـنى عنـه لفهـم الواقـع التاريخي والثقافي في عصره.

يبرز الفصل الأول شخصية عبد الله بن محمد التجاني، أحد أعلام الفكر والأدب في العصر الحفصي، الذي وُلد في تونس بين 670 و675هـ، وتكوّن علميًا في بيئة مزدهرة أكسبته موسوعية واسعة شملت العلوم الشرعية، الأدب، البلاغة، والتراجم، وترك إرثًا معرفيًا غنيًا من مؤلفات مثل أداء اللازم في شرح مقصورة حازم وتحفة العروس ونزهة النفوس.

وقد حظي بمكانة علمية وسياسية رفيعة، إذ تولّى رئاسة ديوان الرسائل ورافق الأمير أبو يحيى زكريا بن اللحياني في رحلته الشهيرة بين 706 و708هـ، التي توثّق مسارًا جغرافيًا يمتد من تونس إلى سوسة وصفاقس وقابس وجربة والجريد وتوزر وطرابلس، مع رصد دقيق للأحداث التاريخية، المعالم العمرانية، أحوال السكان، والعادات والتقاليد.

وتعد الرحلة مرجعا تاريخيًا واجتماعيًا وجغرافيًا وأدبيًا متكاملا، يعكس قدرة التجاني على الجمع بين الدقة العلمية والأسلوب الأدبي، ويقدّم صورة شاملة عن الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي في شمال إفريقيا والمغرب الإسلامي في أواخر القرن السابع الهجري.

الفصل الثاني :منهج التيجاني في رحلته

1- المنهج التاريخي عند التيجاني

1- 1- مصادره المعتمدة (المكتوبة و الشفوية)

1-2 أسلوب التوثيق والنقد

1-3 نظرته النقدية و تحليله للأحداث

2- المنهج والجغرافي و الوصف العمراني

2-1 وصف المدن و المعالم

2-2 عنايتي بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية

2-3 المقارنة بين مشاهداته الشخصية و الروايات المنقولة

يعتبر عبد الله التيجاني من أبرز الرحالة الذين أسهمت رحلاتهم في إثراء المعرفة التاريخية والجغرافية، إذ لم تقتصر رحلته على سرد مشاهدات وتجارب السفر، وإنما اتسمت بمنهج علمي قائم على التوثيق والتحليل والوصف الدقيق، فقد جمع بين ما عاينه وشاهده بنفسه وبين ما استقاه من المصادر المكتوبة والروايات الشفوية، مما أكسب كتاباته قيمة علمية وتاريخية بارزة.

وفي تناوله للأحداث والأخبار، اعتمد التيجاني على منهج تاريخي يقوم على التحقق والنقد، فلم يكتف بنقل الروايات، بل عمل على دراستها وتمحيصها وتصحيحها، مستندًا إلى قدرته على التحليل والمقارنة بين مختلف الروايات والمصادر، وهو ما يعكس وعيًا واضحًا بأسس المنهج التاريخي.

كما أولى الجانب الجغرافي اهتمامًا كبيرا، من خلال وصفه للمدن والمعالم والمباني والهياكل المعمارية، إلى جانب رصده للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمناطق التي زارها، الأمر الذي جعل رحلته مصدرًا غنيًا يجمع بين المعطيات التاريخية والجغرافية والاجتماعية.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا الفصل إلى دراسة منهج عبد الله التيجاني في رحلته من خلال محورين أساسيين؛ يتناول الأول منهجه التاريخي من حيث مصادره وطرائق توثيقه وأسلوبه النقدي، بينما يركز الثاني على منهجه الجغرافي من خلال وصف المدن والمعالم ورصد الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، فضلًا عن المقارنة بين مشاهداته المباشرة والروايات التي نقلها، بما يسمح بإبراز الأسس المنهجية التي قامت عليها رحلته ودورها في بناء معرفة تاريخية وجغرافية أكثر دقة وشمولًا.

1_1 المنهج التاريخي عند التيجاني

يشكل المنهج التاريخي عند التيجاني إطارا علميا يسعى من خلاله إلى إعادة بناء الوقائع التاريخية اعتمادا على أسس دقيقة في الجمع والتحليل، ويتجلى هذا المنهج في تنوع مصادره، ودقته في التوثيق، وعمق نظرته النقدية للأحداث التاريخية.

1-2 مصادره المعتمدة (المكتوبة و الشفوية):

اعتمد الرحالة على مجموعة متنوعة من المصادر التاريخية لكتابة أحداثه، استخدم أقوال الكتاب والمؤرخين المعروفين لتأكيد آرائه وتوضيح أفكاره، إشاراته المتكررة إلى هذه المراجع تظهر سعة اطلاعه وغزارة معارفه، كان لديه كتب ومخطوطات نادرة، ومن أبرز المصادر التي اعتمد عليها مكتبة السلاطين الحفصيين في قصبة تونس، والتي ساهمت في مادته العلمية، لم يكتف بالنقل فقط، بل قام بمناقشة الروايات التاريخية المختلفة والمقارنة بينها وتمحيصها للوصول إلى الحقيقة، مما يظهر أنه كان باحثًا مدققًا لا مجرد جامع موسوعي[1].

[1] شوقي عطا الله الجمل، **أضواء على رحلة التجاني في البلاد التونسية وطرابلس وأهميتها التاريخية والأدبية**، ع5، 1 مارس 1976، ص130.

اعتمد الرحالة التجاني في رحلته على مجموعة متنوعة من المصادر، مما أعطى نصه قيمة فريدة، استخدم المصادر المكتوبة مثل الكتب الجغرافية والتاريخية والأدبية، وقارن المعلومات ووثقها كما هو الحال في كتاب ''المسالك والممالك'' للبكري[1]، وتاريخ ابن شداد، والكامل في التاريخ لابن الأثير[2]، والذخيرة لابن بسام[3]، وأنموذج الزمان لابن رشيق القيرواني، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني، كما نقل نصوصا من كتب نادرة، مثل ''تحفة القادم'' لابن الأبار، هذا يظهر مدى اطلاعه الواسع واهتمامه بحفظ التراث الأدبي[4].

بالإضافة إلى ذلك، اعتمد التجاني على المصادر الشفوية التي جمعها من خلال معايشته الناس خلال رحلته، واستمع إلى القصص والأخبار والمراسلات، نقل منها الشعر والنثر، مما يعكس الحياة الاجتماعية والثقافية في ذلك العصر، هذه المراسلات تمتاز بطراز فني رائع، مما يظهر تميز رحلته التي جمعت بين الدقة التاريخية والثراء الأدبي[5].

اعتمد الرحالة التجاني على مصادر متنوعة مكتوبة ككتب التاريخ والجغرافيا والأدب، إلى جانب مصادر شفوية استقاها من مشاهداته وروايات الناس، مما منح رحلته مصداقية

[1]أبو عبيد البكري هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري، من أبرز علماء الأندلس في اللغة والفكر، نشأ وتكوّن علميًا في قرطبة أخذ العلم عن عدد من كبار العلماء، مما أسهم في ترسيخ مكانته العلمية. برز في علوم اللغة وأيام العرب، وترك مؤلفات متعددة، من أهمها «اشتقاق الأسماء» و**«معجم ما استعجم من البلدان»**، الذي يُعد من المصادر المهمة في الجغرافيا واللغة العربية..أنظر: الذهبي(ت) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ط25، المكتبة الاسلامية، ج25/19.

[2]يعدّ عز الدين ابن الأثير من كبار العلماء في التراث الإسلامي، إذ جمع بين العلم والأدب والنسب، فكان إمامًا محدثًا وأديبًا بارعًا، اسمه الكامل علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجزري الشيباني، وهو ابن الشيخ أبي الكرم، اشتهر بمصنفاته القيمة، من أبرزها كتاب الكامل في التاريخ الذي يُعد من أهم كتب التاريخ الإسلامي، وكتاب معرفة الصحابة. وُلد في جزيرة ابن عمر سنة 555هـ، ونشأ فيها مع أخويه العالمين مجد الدين ابن الأثير وضياء الدين ابن الأثير، ثم انتقلوا إلى الموصل حيث تلقّوا العلم واشتغلوا به، حتى نبغوا وسادوا في مجالاتهم العلمية والأدبية. ينظر: الذهبي، المصدر السابق، ج354/22.

[3]يُعدّ ابن بسّام الشنتريني أحد أبرز أعلام الأدب والتاريخ في الأندلس، إذ وُلد بمدينة شنترين (في البرتغال حاليًا) سنة 477هـ، وعاش في ظل الحضارة الإسلامية الزاهرة التي ازدهرت في تلك الربوع. وقد تميّز بثقافته الواسعة وبلاغته الرفيعة، فجمع بين التأريخ والأدب، وكان من الأدباء النبهاء الذين أسهموا في توثيق الحياة الثقافية والفكرية في عصره. كما يُعرف بكتابه الشهير "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، الذي يُعدّ من أهم المصادر الأدبية والتاريخية عن الأندلس. وتوفي سنة 542هـ، بعد أن خلّف تراثًا غنيًا يعكس مكانة الأندلس العلمية والحضارية في ذلك العصر.أنظر: العربية، ابن بسام الشنتريني .. والحفاظ على تراث الأندلس، 01 يناير 2017 م، 12:56، مقال على موقع:
/https://www.dar-alifta.org/ar/ourreligion/details/4960

[4]إبراهيم علي كردي، المرجع السابق، ص42.

[5]المرجع نفسه، ص42.

وغنى معرفيا، كما تميز بمنهج نقدي قائم على المقارنة والتمحيص بين الروايات، مما جعله باحثا مدققا.

2-2 أسلوب التوثيق والنقد

يتميز التجاني في رحلته بمنهج دقيق يجمع بين التوثيق التاريخي والنقد العلمي، حيث لم يكتفِ بسرد الأخبار، بل حرص على تدعيمها بوثائق تاريخية وإيراد أحداث تفرد بذكرها، مما جعل رحلته مصدرًا مهمًا لتصوير الحياة في البلاد التونسية خلال العصور الوسطى من حيث البنية السكانية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. وقد اعتمد في ذلك على منهج الملاحظة المباشرة عند وصف المدن والطرق، فكان ينطلق من المشاهدة والمعايشة، ثم يعمد إلى المقارنة بما ورد في كتب التراث مثل المسالك والممالك والكامل في التاريخ وغيرها، وهو ما يعكس وعيًا نقديا قائمًا على التمحيص والمقارنة بين الروايات[1].

كما يظهر الجانب النقدي لديه في تعامله مع النصوص الأدبية، إذ لم يكتفِ بنقلها، بل أحسن توظيفها في سياق رحلته، سواء كانت من مصادر معروفة أو من كتب ودواوين نادرة اندثرت، مثل أنموذج الزمان وتحفة القادم، مما يدل على حس توثيقي يسعى إلى حفظ التراث. وإلى جانب ذلك، أدرج مراسلات إخوانية وعائلية تضم شعرًا ونثرًا، عاكسًا بذلك الحياة الثقافية وأساليب التعبير السائدة في عصره. وقد صاغ كل ذلك بأسلوب يجمع بين الطبع ، دون تكلف مفرط، مما جعل نصه يجمع بين الدقة العلمية

[1] إبراهيم علي كردي، المرجع السابق، ص42.

والبعد الأدبي، ويؤكد مكانته كرحالة مؤرخ يمتلك أدوات النقد والتحليل، لا مجرد ناقل للأخبار[1].

1-3 نظرته النقدية و تحليله للأحداث

من الواضح أن الرحالة عبد الله التيجاني لم يكن مجرد شخص ينقل الأخبار أو يصف الأماكن بشكل سطحي، بل كان لديه طريقة نقدية وتحليلية واضحة عند التعامل مع الأحداث التاريخية والجغرافية، عندما يتحدث عن الأحداث التاريخية في كل مدينة، لا يكتفي بسردها بطريقة تقليدية، بل يفككها ويربطها بالسياق الزمني الخاص بها، ويحاول أن يحترم التسلسل التاريخي للأحداث، هذا يظهر أنه يمتلك وعيًا تاريخيًا بالظواهر، كما يظهر التيجاني أنه شخص مطلع على المصادر التاريخية، حيث يستشهد بأقوال المؤرخين والكتاب، لكنه لا يفعل ذلك فقط للتزيين، بل ليدعم رأيه أو يوضح الفكرة. هذا يدل على أنه يمتلك نزعة علمية واضحة[2].

عندما يتعامل التيجاني مع القضايا المختلف فيها، تظهر نزعته النقدية بشكل خاص، فهو لا يتبنى الروايات بشكل أعمى، بل يناقشها ويتمحصها ويقارن بينها، هدفه هو الوصول إلى الحقيقة، هذا السلوك يخرجه من دائرة المؤرخ الذي يجمع المعلومات دون تحليل، ويضعه في مصاف الباحث الذي يستخدم العقل والتحليل، ومن الملاحظ أن التيجاني يعتمد على مصادر متعددة، مثل المكتبات. هذا يعكس تنوع المرجعيات، ويعزز

[1] إبراهيم علي كردي، المرجع السابق، ص42.

[2] شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص.130.

قيمة عمله. في الوقت نفسه، لا يخفي التيجاني حضوره الشخصي، حيث تتداخل آراؤه الذاتية مع المادة التاريخية[1].

ومنهجه في إدماج الأحداث التاريخية ضمن وصفه الجغرافي للمدن يدل على رؤية تركيبية، فهو لا يفصل بين المكان وتاريخه، بل ينظر إلى المدينة كوحدة متكاملة، هذا يعكس وعيا مبكرًا بما يسمى اليوم بـ"التفسير الحضاري" للظواهر، ومع ذلك، يمكن أن نجد بعض الانتقادات لمنهجه، مثل الإطالة عند الحديث عن بعض القضايا التاريخية، هذا قد يبعد القارئ أحيانا عن موضوع الرحلة الأساسي، ولكن هذا الاستطراد يثري النص ويمنحه بعدا معرفيا وثقافيا واسعا[2].

2- المنهج والجغرافي و الوصف العمراني

يتناول هذا المبحث المنهج الذي اعتمده الرحالة في وصفه الجغرافي والعمراني، من خلال تصويره الدقيق للمدن والمعالم، وتحليله لمختلف مظاهر الحياة. كما يبرز اهتمامه بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية، مع مقارنته بين مشاهداته المباشرة وما نقله من روايات.

2-1 وصف المدن و المعالم

يعد وصف المدن والمعالم عند أبي محمد عبد الله التجاني من أبرز سمات منهجه الجغرافي، حيث يتسم بالدقة والتفصيل، مع مزج واضح بين الملاحظة المباشرة والتحليل ففي وصفه لمدينة قابس يقدم صورة عمرانية متكاملة، إذ يبرز تحصيناتها من خلال السور الضخم

[1] شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص.131.

[2] إبراهيم علي كردي، المرجع السابق، ص.43.

والخندق الذي يحيط بها، وهو عنصر دفاعي يعكس وعيًا عسكريا وتنظيما حضريا متقدّمًا، كما يشير إلى توزيع المجال الحضري عبر الأرباض الواسعة التي تحتضن الأسواق، مما يدل على حيوية النشاط التجاري خارج النواة المركزية للمدينة، ولا يكتفي التجاني بالوصف الخارجي، بل يتعمق في البنية البيئية، فيتحدث عن الوادي الذي يخترق المدينة ويسقي بساتينها، رابطًا بين الطبيعة والعمران[1].

حيث تتداخل المياه مع المجال السكني والزراعي في تناغم يكشف عن نظام بيئي متكامل. ويمتد وصفه ليشمل الجانب الفلاحي، فيبرز كثافة الجنات والبساتين خاصة في الجهة الممتدة بين المدينة والبحر، وهو ما يعكس ازدهار النشاط الزراعي، مع الإشارة إلى أنواع الأشجار مثل النخيل والزيتون والتين، مما يمنح وصفه بعدًا اقتصاديًا ضمنيًّا. غير أن التجاني لا يغفل الجوانب السلبية، فيعتمد أسلوبًا نقديًا حين يربط بين كثرة شجر الدفلى وانتشار الأمراض، فيقدّم تفسيرا بيئيًا لحالة التدهور الصحي، ويصف ملامح السكان الجسدية كاصفرار الوجوه، وهو وصف يجمع بين الملاحظة الحسية والاستنتاج[2].

كما يتناول بعض العادات المحلية مثل استعمال الفضلات في تسميد النخيل، وهو عنصر يبرز خصوصية الممارسات الزراعية، حتى وإن بدت غريبة، مما يعكس نزعة وصفية موضوعية لا تخلو من نقد ضمني. وفي وصفه لجزيرة جزيرة جربة، ينتقل التجاني إلى نمط عمراني مختلف، حيث يغلب الطابع البسيط، إذ يصف المساكن بأنها أخصاص من النخيل،

[1] إبراهيم علي كردي، المرجع السابق، ص.43.

[2] إبراهيم علي كردي، المرجع نفسه، ص43.

في إشارة إلى بساطة البناء وارتباطه بالمواد المحلية، مقابل قلة المباني المشيدة، وهو ما يعكس مستوى اقتصاديًا واجتماعيًا معينا[1].

كما يربط بين التوزيع العمراني والانقسام الاجتماعي، فيوضح كيف تنقسم الجزيرة إلى فرقتين لكل منهما مجال جغرافي خاص، مما يكشف عن علاقة وثيقة بين البنية القبلية والتنظيم المجالي، ويعزز هذا الوصف بإشارات دينية ومذهبية، حيث يبرز انتماء السكان إلى الخوارج، فيدمج البعد الفكري ضمن الإطار الجغرافي، يتضح من خلال هذه النماذج أن التجاني لا يقدّم وصفًا سطحيًا للمدن، بل يبني صورة شاملة تقوم على عناصر متعددة: العمران (الأسوار، الأسواق، المساكن)، والطبيعة (الأودية، الغابات، الأشجار)، والإنسان (العادات، الصحة، الانتماءات)، مما يجعل وصفه أقرب إلى دراسة جغرافية-اجتماعية متكاملة[2].

كما أن لغته تجمع بين الدقة العلمية والنفَس الأدبي، حيث يستخدم أوصافا حسية وتشبيهات تعكس قدرته على التصوير، وهو ما يمنح نصوصه قيمة توثيقية وأدبية في آن واحد.

2-2 عنايته بالجوانب الاقتصادية و الاجتماعية

تعتبر عناية الرحالة التجاني بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية من أبرز السمات التي تميّز رحلته، إذ لم يقتصر وصفه على الجغرافيا أو سرد مسار الرحلة فحسب، بل تجاوز ذلك إلى رصد دقيق لمظاهر الحياة اليومية للسكان، مما يجعل رحلته وثيقة تاريخية ذات قيمة معرفية كبيرة. فقد أبدى اهتمامًا واضحًا بالبنية الاجتماعية للمجتمعات التي مرّ بها، فعمل

[1] إبراهيم علي كردي، المرجع السابق، ص43.

[2] ا إبراهيم علي كردي، المرجع نفسه، ص.44.

على وصف عاداتهم وتقاليدهم، وأنماط عيشهم، وطرق تفاعلهم داخل المجتمع، سواء من حيث العلاقات بين الأفراد أو من حيث التنظيمات القبلية[1].

كما لم يغفل عن دراسة أصول السكان وانتماءاتهم، وهو ما يظهر في حديثه عن بعض المناطق مثل توزر، حيث حرص على تقديم معطيات دقيقة حول أصول أهلها، وهو ما يعكس وعيًا مبكرًا بأهمية البعد العرقي في فهم المجتمعات. ومن جهة أخرى، أولى التجاني اهتمامًا ملحوظًا بحركة السكان وتنقلهم، حيث سجّل ظاهرة الهجرة والتنقل القسري أو الطوعي، كما في حديثه عن سكان جزيرة باشو الذين اضطروا إلى الرحيل نتيجة ما تعرضوا له من تنكيل، وهو ما يكشف عن إدراكه للعوامل السياسية وتأثيرها المباشر على التركيبة السكانية[2].

وهذا النوع من الملاحظات لا يندرج فقط ضمن الوصف، بل يعكس تحليلًا ضمنيًا للعلاقة بين السلطة والمجتمع، وبين الاستقرار والاضطراب. أما من الناحية الاقتصادية، فقد حرص التجاني على وصف الأنشطة الاقتصادية السائدة في كل منطقة، كالزراعة والتجارة والحرف، مبرزا طبيعة الموارد التي تعتمد عليها كل منطقة، ومستوى ازدهارها أو تراجعها. كما اهتم بوصف الأسواق وحركتها، وأسعار السلع أحيانًا، وطرق التبادل التجاري، وهو ما يتيح للقارئ تصورا واضحًا عن الحياة الاقتصادية في تلك الفترة ولم يكتفِ بذلك، بل ربط بين الوضع الاقتصادي والوضع الاجتماعي، مبرزًا كيف تؤثر الظروف الاقتصادية في نمط عيش السكان واستقرارهم[3].

[1] بوشايب أسماء علجية، المرجع السابق، ص.408.
[2] بوشايب أسماء علجية، المرجع نفسه، ص.408.
[3] المرجع نفسه، ص408.

كما اهتم التيجاني بالجوانب الاجتماعية، من خلال وصفه للعادات اليومية والممارسات الدينية، ومقارنته أحيانًا بين ما شاهده وما اعتاده في بيئته، مع إبداء بعض الملاحظات النقدية، كما في حديثه عن طريقة الوضوء لدى بعض الجماعات. ويعكس ذلك وعيه الفكري والثقافي وحرصه على فهم الظواهر وتقييمها، لا مجرد نقلها. كما أن ذكره لأعيان المناطق وعلمائها ومشايخها يبرز إدراكه لدور النخب في الحياة الاجتماعية والثقافية، ويؤكد شمول نظرته لمختلف مكونات المجتمع. [1]

ومن خلال كل هذه العناصر، يتبين أن الرحالة التجاني قد قدّم صورة متكاملة عن المجتمعات التي زارها، حيث جمع بين الوصف الدقيق والتحليل العميق، مما يجعل رحلته مصدرا مهما لدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمناطق التي مر بها.

2-3 المقارنة بين مشاهداته الشخصية و الروايات المنقولة

يتضح أن رحلة التجاني تقوم على مزجٍ واضح بين المشاهدة الشخصية المباشرة وبين الروايات المنقولة عن التاريخ والأخبار، وهو ما يفتح المجال أمام مقارنة منهجية تُبرز طبيعة الكتابة المتعلقة بهذه الرحلة بين الوصف الجغرافي والتأريخ الثقافي. من جهة أولى، يعتمد التجاني في عدد من المواضع على الملاحظة المباشرة (المعاينة الميدانية)، وهو ما يتقاطع مع ما تسميه الدراسات الجغرافية بالوصف القائم على "الاحتكاك المباشر بالمجتمع". يظهر ذلك مثلاً في حديثه عن صفاقس حين يصف اعتماد سكانها على مياه

[1] بوشايب أسماء علجية، المرجع السابق، ص408.

الأمطار المخزنة للشرب، ويشير إلى وفرة السمك فيها، كما يلاحظ خصائص بحرها الذي يتكرر وصفه في الأشعار[1].

هذا النوع من الوصف يوحي بأن الرحالة كان حاضراً في المكان، ينقل تفاصيل الحياة اليومية كما هي، دون وساطة مصادر مكتوبة. كذلك نجده في وصفه لأسواق قابس وأبنيتها وخيراتها، حيث يربط بين طبيعة الموقع الجغرافي (التقاء البحر بالصحراء) وبين نمط العيش الاقتصادي للسكان، وهو ربط يقوم على الملاحظة المباشرة والاستنتاج الميداني. غير أن هذا الطابع المباشر لا يبقى معزولاً، إذ سرعان ما يندمج مع الروايات التاريخية والمنقولة التي تشكل طبقة ثانية من خطاب الرحلة فالتجاني، عند مروره بالمناطق، لا يكتفي بوصفها وصفاً حسياً، بل يعود إلى الأرشيف التاريخي الشفهي والمكتوب ليؤطر المكان في سياقه الزمني[2].

يتجلى ذلك في حديثه عن تاريخ إفريقية والصراعات السياسية في عهد المعز بن باديس وابنه تميم، أو في ذكره لحوادث مقتل بعض الحكام مثل أبي يعقوب المريني وأحداث الحكم الحفصي. هذه المعطيات لا يمكن أن تكون نتاج معاينة مباشرة، بل هي معلومات تاريخية منقولة عن مصادر سابقة أو روايات متداولة، وظيفتها الأساسية هي تأريخ المكان وربطه بسياق سياسي عام يتجاوز التجربة الفردية للرحالة. وعند مقارنة النوعين، يتضح أن المشاهدة الشخصية عند التجاني تتميز بالدقة الوصفية والتجزيئية؛ فهي تلتقط تفاصيل

[1] ترشاق سعاد، **المرجع السابق**، ص 96.

[2] ترشاق سعاد، المرجع نفسه، ص.96.

الحياة اليومية: الماء، الغذاء، الأسواق، العادات، الأمراض، وحتى أساليب الحماية من العدو مثل حفر الخنادق[1].

بينما تتميز الروايات المنقولة بالطابع الكلي والتاريخي العام، إذ لا تهتم بالتفاصيل الحسية بقدر ما تهتم بسرد الأحداث الكبرى، كالصراعات السياسية وتعاقب الحكام وأخبار المدن القديمة. كما يمكن ملاحظة أن التجاني لا يفصل بين هذين المستويين، بل يدمجهما في نسيج واحد؛ فالوصف الجغرافي عنده غالباً ما يُدعّم بخلفية تاريخية، والوصف التاريخي بدوره يُقدَّم داخل إطار مكاني محسوس. فمثلاً عند حديثه عن المنارة المنسوبة لابن الأغلب، يجمع بين وصف معماري دقيق (بناء مستدير مرتفع من الحجارة الضخمة) وبين إحالة تاريخية على منشئها ودورها ضمن شبكة القصور والمحارس الإفريقية. هذا التداخل يجعل نص الرحلة أقرب إلى وثيقة تاريخية مركبة[2].

ومن منظور نقدي، فإن الجمع بين المعاينة المباشرة والأخبار المنقولة يعكس طبيعة أدب الرحلة في المغرب القديم، الذي يجمع بين التجربة الشخصية والمعرفة التاريخية. ومن ثم، لا تقتصر قيمة نص التيجاني على دقة ملاحظاته، بل تتجلى أيضًا في توظيفه للذاكرة التاريخية في وصف الواقع، مما أكسب المكان أبعادًا تاريخية وثقافية متكاملة. [3].

وبذلك، يتبين أن الفرق بين المشاهدات الشخصية والروايات المنقولة ليس فرق تضاد، بل هو فرق تكامل: فالأولى تمنح النص واقعيته وحيويته، والثانية تمنحه شرعيته

[1] ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص.96.
[2] ترشاق سعاد، المرجع نفسه، ص.97.
[3] المرجع نفسه، ص98.

التاريخيـــة واتســـاعه الحضـــاري، وهـــو مـــا يجعـــل رحلـــة التجـــاني نموذجـــاً واضـــحاً لـــلأدب في الكتابـــة الرحلية.

يتضح من هذا الفصل أن عبد الله التيجاني اعتمد منهجًا علميًا متكاملاً في رحلته، جمع فيه بين تنوع المصادر المكتوبة والشفوية، مما أضفى على نصه مصداقية وغنى معرفيا.

ولم يكتفِ بالنقل، بل انتهج أسلوبا قائما على التوثيق الدقيق والمقارنة بين الروايات، معتمداً على الملاحظة المباشرة في وصف المدن والمعالم، ثم ربط ذلك بما ورد في كتب التراث. كما أظهر نزعة نقدية واضحة من خلال تحليله للأحداث وربطها بسياقاتها التاريخية، دون التسليم المطلق بالأخبار، وهو ما يعكس وعيا منهجيا متقدما.

وإلى جانب ذلك، برز اهتمامه بالوصف الجغرافي والعمراني، حيث صوّر مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، جامعا بين الخبرة الميدانية والمعرفة النظرية.

وبذلك، تمثل رحلته نموذجًا متميزًا تتقاطع فيه أبعاد التاريخ والجغرافيا والأدب والإثنوغرافيا، وتؤكد مكانته كرحالة مؤرخ يمتلك أدوات التحليل والنقد.

الفصل الثالث: مضمون الرحلة وأبعادها الحضارية

1- الجانب السياسي

1-1- وصف الأنظمة السياسية

1-2- رصد الأوضاع الأمنية والعسكرية

2- الجانب الاجتماعي والاقتصادي

2-1- الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد

2-2- الأنشطة الاقتصادية والتجارية

3-3- الجانب العلمي والثقافي

3-1 الحركة العلمية والمؤسسات التعليمية

3-2 العلماء الذين ذكرهم وتأثيرهم

يتناول هذا الفصل رحلة أبي محمد عبد الله بن محمد التجاني باعتبارها مصدرا تاريخيًا وجغرافيًا وثقافيًا مهمًا، لما تتضمنه من معطيات غنية حول مختلف جوانب الحياة في بلاد المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط.

ولا تقتصر أهمية الرحلة على وصف الأماكن والمجالات الجغرافية، بل تتجاوز ذلك إلى رصد الأوضاع السياسية والأمنية والعسكرية، إلى جانب الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية، مما يجعلها وثيقة متعددة الأبعاد تعكس طبيعة المجتمع الذي عاصره الرحالة.

ويسعى هذا الفصل إلى تحليل مضامين الرحلة وفق مقاربة شمولية تبرز صورة الأنظمة السياسية السائدة، والأوضاع الأمنية والعسكرية، ومظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فضلًا عن الحركة العلمية والثقافية وما ارتبط بها من مؤسسات تعليمية وعلماء ونشاط فكري.

كما يهدف إلى إبراز القيمة التاريخية للرحلة باعتبارها مصدرا قائمًا على الملاحظة المباشرة والوصف الدقيق، مع مراعاة ما تتضمنه من انطباعات شخصية تعكس رؤية التجاني وتصوراته تجاه مختلف مظاهر العالم الذي عايشه ووصفه.

1- الجانب السياسي

1-1- وصف الأنظمة السياسية

يعتبر أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني من أبرز الرحالة في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، حيث قدّم في رحلته صورة دقيقة وشاملة عن الأوضاع السياسية السائدة في عصره، خاصة في ظل الدولة الحفصية[1]، فقد عكست رحلته طبيعة النظام السياسي القائم على مركزية السلطة، إذ برز دور الأمير أبو يحيى زكرياء اللحياني[2]

[1] تُعرَّف العصور الوسطى بأنها الفترة التاريخية التي توسطت بين العصور القديمة وعصر النهضة الحديثة، وتمتد تقريبًا من سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة 476م إلى بدايات عصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. وقد ظهر مصطلح «العصور الوسطى» على يد الأدباء الإنسانيين في عصر النهضة، ومن أبرزهم بترارك، الذين نظروا إلى هذه المرحلة باعتبارها فترة انحطاط مقارنةً بالحضارة اليونانية والرومانية القديمة. غير أن الدراسات الحديثة ترى أن العصور الوسطى لم تكن مجرد عصر تخلف، بل كانت مرحلة استمرارية وتكوين حضاري، حافظت على جوانب من التراث الروماني في اللغة والقانون والمؤسسات، وتفاعلت مع ثقافات الشعوب الجرمانية والبيزنطية والعربية الإسلامية، التي أسهمت بدور مهم في تطور الحضارة الأوروبية..أنظر: موريس بيشوب، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة على السيد على، 2005 ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص. 11.

[2] يُعدّ الأمير أبو يحيى زكريا بن أحمد الحفصي من أبرز أمراء الدولة الحفصية، وهو من بيت عريق في الحكم والإمارة ينتسب إلى أبي حفص الهنتاتي أحد كبار رجال الدولة الموحدية وأحد خاصّة ابن تومرت. وُلد بتونس قبل سنة 650هـ، وتلقّى علوم الفقه واللغة العربية، فنشأ مكرّمًا معظّمًا بين ملوك تونس. بويع بالحكم سنة 711هـ، فكان أميرًا شجاعًا مقدامًا، تميّز بقرارات جريئة من أبرزها إبطال ذكر ابن تومرت في الخطبة، رغم الصلة التاريخية التي تربط أسرته به. وقد واصل حكمه إلى أن توفي في شهر المحرم بمدينة الإسكندرية، تاركًا أثرًا بارزًا في تاريخ الدولة الحفصية.أنظر: ابن كثير – إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية، دار عالم الكتب، البداية والنهاية – 1424هـ / 2003م، ج283/18.

بوصفه ممثل السلطة العليا، يجمع بين القيادة السياسية والعسكرية، ويتولى الإشراف على شؤون الدولة، مثل تنظيم الحملات وجباية الأموال وضبط الأمن[1].

كما أظهرت الرحلة أن تحركات الركب لم تكن دينية فقط، بل كانت تحمل أبعادا سياسية وإدارية واضحة، خاصة عند توجههم نحو البلاد الجريدية لجمع الضرائب، وهو ما يدل على وجود نظام جبائي منظم تعتمد عليه الدولة في تمويلها، كما كشف التجاني عن الطابع العسكري للسلطة، من خلال مشاركته في حصار حصن قشتيل بجربة، وهو ما يعكس اعتماد الدولة على القوة لفرض نفوذها على المناطق المختلفة.

وفي الوقت نفسه، أشار إلى التفاوت في درجة خضوع المناطق للسلطة المركزية، حيث كانت بعض الجهات تخضع بشكل مباشر، بينما تحتاج مناطق أخرى إلى حملات عسكرية أو جبايات دورية لإثبات السيطرة عليها، ويُبرز هذا الوضع طبيعة العلاقة بين المركز والأطراف، التي اتسمت أحيانًا بالاستقرار وأحيانًا أخرى بالتوتر[2].

ومن جهة أخرى، لم تغفل الرحلة الإشارة إلى الأوضاع السياسية خارج المجال الحفصي، إذ نقل خبر مقتل أبو يعقوب المريني، وهو حدث يعكس حالة الاضطراب في الدولة المرينية، ويبيّن مدى تأثير هذه الأحداث على الرحلات والتنقلات، بل وحتى على

[1] بوشايب أسماء علجية، المرجع السابق، ص402.
[2] بوشايب أسماء علجية، المرجع نفسه، ص402.

أداء الشعائر الدينية مثل الحج، الذي تأجل بسبب تلك الظروف، وهذا يدل على الترابط السياسي بين أقاليم المغرب الإسلامي[1].

كما تُظهر رحلة التجاني تداخل الدين بالسياسة، إذ كان الهدف المعلن للرحلة هو أداء فريضة الحج، غير أن الواقع كشف عن حضور قوي للاعتبارات السياسية، سواء في تنظيم الرحلة أو في تأجيلها، مما يعكس اعتماد السلطة على الشرعية الدينية في تدعيم حكمها[2].

وبذلك، يمكن القول إن رحلة التجاني تمثل وثيقة تاريخية مهمة، لا تقتصر على الوصف الجغرافي، بل تقدم تحليلًا ضمنيًا لبنية النظام السياسي في المغرب الإسلامي، من حيث مركزية الحكم، والطابع العسكري، والنظام الجبائي، والعلاقات بين الدول، وتأثير الاضطرابات السياسية على الحياة العامة.

1-2- رصد الأوضاع الأمنية والعسكرية

تجاوزت رحلة أبي القاسم التيجاني الوصف الجغرافي والعمراني إلى رصد الأوضاع الأمنية والعسكرية بإفريقية خلال أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجري، مبرزًا تفاوت الاستقرار بين الحواضر والبوادي؛ إذ تمتعت مدن مثل إفريقية وطرابلس بأمن نسبي بفضل

[1] يُقصد بالمغرب الإسلامي ذلك المجال الجغرافي الذي يشكّل الجزء الغربي من العالم الإسلامي، وقد ظهر هذا المصطلح في حدود منتصف القرن الأول الهجري، خاصة في سياق الصراع السياسي بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. وكان يُستعمل للدلالة على الأقاليم الواقعة غرب مركز الخلافة، فشمل في بداياته مصر وامتداداتها، ثم اتسع ليضم مناطق برقة، وإفريقية، وصولاً إلى أقصى الغرب عند طنجة. ومع تطور التقسيمات الإدارية، أصبح يُطلق غالبًا على الأقاليم الممتدة من طرابلس إلى المغرب الأقصى، مع تمييز داخلي بين المغرب الأدنى والأوسط والأقصى.أنظر: موسى لقبال، **المغرب الإسلامي**، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1951، ص.13.

[2] بوشايب أسماء علجية، المرجع السابق، ص. 402.

السلطة المركزية والحاميات العسكرية، في حين عانت المناطق الداخلية والطرق الصحراوية من الاضطرابات بفعل تحركات القبائل الرحل والنزاعات القبلية.[1].

كما أشار التيجاني إلى مظاهر الحذر أثناء التنقل، من خلال الاعتماد على القوافل والحراس، مما يدل على ضعف الأمن خارج المدن. كما أبرز أهمية الأسوار والتحصينات ونقاط المراقبة في حماية الحواضر والطرق التجارية، إلى جانب رصده لبعض مظاهر التمرد والصراعات المحلية، خاصة في المناطق البعيدة عن مركز السلطة، بما يعكس حالة من التوتر السياسي والاجتماعي.[2].

ولم يغفل الإشارة إلى دور القادة المحليين والولاة[3] في حفظ الأمن أو الإخلال به، حسب قدرتهم على ضبط القبائل وبسط النفوذ. وهكذا تقدم الرحلة صورة مركبة عن واقع

[1] عمرو أبوالفضل، **التيجاني صاحب أقدم رحلة في بلاد أفريقيا**، 7 ديسمبر 2012، 11:43، مقال على موقع https://www.aletihad.ae/article/116958/2012/

[2] عمرو أبوالفضل، المرجع السابق.

[3] الولي هو مصطلح يحمل دلالات متعددة في اللغة والدين، ويُفهم أساسًا على أنه القريب من الله والمحب له. فهو إما أن يكون بمعنى الفاعل، أي الذي يداوم على طاعة الله دون انقطاع أو معصية، أو بمعنى المفعول، أي الذي تتوالى عليه نعم الله وإحسانه. ويُعرَّف الولي أيضًا بأنه العارف بالله وصفاته بقدر طاقته، الملتزم بالطاعات، المجتنب للمعاصي، والمعرض عن الانغماس في الشهوات. ومن هذا المنطلق، فإن الولاية تدل على الموافقة المستمرة لأوامر الله، وهي ضد العداوة؛ إذ تقوم على المحبة والقرب، في حين أن العداوة تقوم على البغض والبعد. كما أن للولاية معاني لغوية أخرى، منها النصرة (بفتح الواو)، والإمارة (بكسرها)، وقد تُستعمل كذلك للدلالة على الربوبية أو المحبة، وكلها تعود إلى أصل واحد هو القرب والاتصال. أنظر: الجرجاني (ت)، **التعريفات**، تح: عبد المنعم الحفني دار الرشاد القاهرة، 1991م، ص 282 (٢) السلمي، **التفسير**، تح: سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص. 307.

أمني يتأرجح بين الاستقرار النسبي في المدن والتوتر المستمر في الأطراف، بما يعكس طبيعة المرحلة التاريخية التي عايشها[1].

2- الجانب الاجتماعي والاقتصادي

2-1- الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد

يتضح أن التيجاني لم يقتصر على الوصف الجغرافي أو السرد الرحلي فقط، بل قدم وصفا دقيقًا للحياة الاجتماعية في المناطق التي زارها، ويمكن إبراز ذلك فيما يلي[2]:

أولًا، يظهر اهتمام التيجاني بالأنساب باعتبارها عنصرًا أساسيًا في تحديد الهوية والمكانة الاجتماعية، ويتضح ذلك من تتبعه لأصول بعض القبائل، مثل قبائل زُغْب، وربطها بجذورها التاريخية.

ثانيًا، يعكس النص أهمية النسب في المجتمع، من خلال إشارته إلى اختلاف الناس في نطق اسم القبيلة، ثم رجوعه إلى المصادر الموثوقة للتحقق من صحة ذلك، مما يدل على حرصه على دقة المعلومات.

وهذا يدل على وجود تداول شعبي للمعلومات يقابله تحقيق علمي دقيق، أما ثالثا، يبرز التيجاني جانبا مهما من الحياة الاجتماعية وهو الاعتزاز بالتاريخ القبلي، حيث يتحدث عن هجرة القبائل وأدوارها في تاريخ المنطقة، مما يدل على أن الماضي كان حاضرا بقوة في وعي الناس ويؤثر في واقعهم الاجتماعي.

[1] عمرو أبوالفضل، المرجع السابق.

[2] شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص134.

رابعا، تكشف الفقرة عن منهج علمي نقدي لدى التيجاني، إذ لا يكتفي بما يسمع، بل يعود إلى كتب الأنساب للتحقق، وهو ما يعكس وجود تمايز داخل المجتمع بين المعرفة الشعبية والمعرفة العلمية[1].

اهتم الرحالة التيجاني في أسفاره بوصف الحصون والقلاع بوصفها عناصر أساسية في تاريخ المدن التي مرّ بها، حيث لم يكتفِ برصد شكلها الخارجي، بل تجاوز ذلك إلى دراسة ظروف نشأتها والأحداث التاريخية المرتبطة بها، مما يجعل كتاباته ذات طابع تاريخي توثيقي عميق. فهو يصف، على سبيل المثال، حصن ''الجم'' باعتباره من أعظم حصون إفريقية، ويقدّم وصفًا دقيقًا لبنيته المعمارية من حيث الشكل المستدير والارتفاع الكبير، كما يربط هذا الوصف بما ورد عند المؤرخين السابقين مثل البكري[2]، مما يعكس حرصه على التثبت من المعلومات ومقارنتها بالمصادر التاريخية[3].

ومن خلال هذا التوجه، يتضح أن اهتمام التيجاني لم يكن جغرافيا صرفا، بل كان يحمل بعدا تاريخيًا عسكريا، إذ جعل من الحصون والقلاع مرآة تعكس تاريخ المنطقة في مختلف مراحله، خاصة ما يتعلق بالصراعات والحروب والدفاع عن المدن، كما يكشف أسلوبه عن منهج علمي يقوم على التدقيق والتحقق من الروايات وعدم الاكتفاء بالمشاهدات المباشرة، بل ربطها بالمصادر التاريخية الموثوقة، مما يمنح وصفه قيمة علمية وتاريخية في آن

[1] شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص135.

[2] شوقي عطا الله الجمل، المرجع نفسه، ص135.

[3] أبو عبيد البكري (404 - 487 هـ / 1014 - 1094 م) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري، أحد أبرز الجغرافيين والرحالة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري. وُلد في مدينة هويلبة بالأندلس، ونشأ في بيئة علمية وأدبية مكّنته من التكوين المعرفي في مجالات التاريخ والجغرافيا واللغة، اشتهر البكري بدقته في جمع الأخبار واعتماده على الروايات الموثوقة، رغم أنه لم يقم برحلات واسعة إلى المناطق التي وصفها، بل اعتمد على ما نقله الرحالة والتجار، من أشهر مؤلفاته كتاب ''المسالك والممالك'' الذي يُعد من أهم المصادر الجغرافية في العصر الوسيط، حيث قدّم فيه وصفًا دقيقًا لبلدان العالم الإسلامي وأجزاء من إفريقيا وأوروبا، مع اهتمام خاص بشمال إفريقيا والأندلس. وقد ساهمت أعماله في حفظ معلومات تاريخية وجغرافية قيّمة اعتمد عليها الباحثون اللاحقون في دراسة تلك الحقبة.أنظر: الفتح بن محمد بن خاقان (1968م). قلائد العقيان في محاسن الأعيان. تحقيق محمد العناني (ط. تحقيق محمد العناني). القاهرة: المكتبة العتيقة. ج. 1، ص. 191.

واحد. وبالتالي، فإن التيجاني يبرز جانبا مهمًا من منهجه، وهو توظيف الوصف العمراني في خدمة التاريخ، حيث تصبح الحصون والقلاع وثائق مادية تحكي تطور الأحداث السياسية والعسكرية للمنطقة[1].

2-2- الأنشطة الاقتصادية والتجارية

قدم الرحّالة التيجاني في رحلته وصفًا واسعًا ودقيقًا للأنشطة الاقتصادية والتجارية في المناطق التي مرّ بها، حيث لم يقتصر على تسجيل المشاهدات العامة، بل حاول تحليل البنية الاقتصادية لكل منطقة وربطها بخصائصها الجغرافية والاجتماعية. فقد أشار إلى تنوع النشاط التجاري بين المدن والأسواق الريفية، وبيّن أن بعض المناطق تعتمد على الزراعة وتبادل الحبوب والتمور، في حين تشتهر مناطق أخرى بتجارة القوافل التي تربط بين الجنوب والشمال، وتنقل سلعًا مهمة مثل الملح، والجلود، والذهب، إضافة إلى المواد المصنّعة محليا[2].

كما وصف حركة الأسواق بأنها القلب النابض للحياة الاقتصادية، حيث يلتقي التجار والسكان لتبادل السلع وتحديد الأسعار وفق العرض والطلب، مع ملاحظة دور الوساطة التجارية التي يقوم بها بعض التجار في تنظيم هذه العمليات التجارية، ولم يغفل التيجاني عن إبراز دور الطرق التجارية في تنشيط الاقتصاد المحلي وربط المناطق النائية بالمراكز الحضرية، مشيرا إلى أهمية القوافل المنظمة وما تتطلبه من تخطيط وأمن ومرافقة، كما رصد تأثير العوامل الطبيعية، مثل خصوبة الأرض ووفرة المياه أو قساوة المناخ، في تحديد نوع النشاط الاقتصادي السائد في كل منطقة[3].

[1] شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق ، ص136.

[2] التجاني، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981، ص56

[3] التجاني، المصدر نفسه، ص57

وأما بالنسبة للعادات والتقاليد والملبس والمعاش، لم يغفل الكاتب عن وصف أحوال السكان اليومية، حيث أشار إلى أن سكان مدينة صفاقس يعتمدون في شربهم على ما يقومون بتخزينه من مياه الأمطار، نظرا لندرة الموارد المائية الدائمة، كما قم بابراز ما تتميز به هذه المنطقة من وفرة في الثروة السمكية، إضافة إلى بحرها الذي يتميز بجماله الفريد، والذي ألهم العديد من الشعراء الذين تناوبوا على وصفه في قصائدهم، تعبيراً عن روعة طبيعته وسحره[1].

وإلى جانب ذلك، قدم إشارات تاريخية عن بعض المدن ومكانتها التجارية عبر الزمن، مما يبرز عمق معرفته واتساع ثقافته، ومن خلال هذا الوصف المتكامل، يتضح أن التيجاني لم يكن مجرد رحالة ناقل للمشاهد، بل كان مراقبًا دقيقًا يسعى إلى فهم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في سياقها العام.

يعتبر الجانب الاقتصادي في رحلة التجاني أحد أهم الأبعاد التي عاين من خلالها الرحّالة واقع شمال إفريقيا، إذ يقدّم صورة دقيقة عن أنماط الإنتاج ووسائل العيش في المدن والقرى التي زارها، فقد ركز على تنوّع الأنشطة الاقتصادية بين الزراعة والتجارة والصناعة الحرفية، مشيرًا إلى خصوبة بعض المناطق ووفرة محاصيلها مثل الحبوب والزيتون والتمور، وما يرافق ذلك من ازدهار للأسواق المحلية[2].

[1] ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص97.

[2] خضر موسى محمد حمود، أدب الرحلات، أشهر أعلام العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى لبنان، 2011، ص 9.

كما أشار إلى حركة المبادلات التجارية النشطة بين المدن الداخلية والسواحل، حيث لعبت الموانئ دورًا محوريًا في تصدير السلع واستيرادها، مما جعل بعض الحواضر مراكز اقتصادية مزدهرة تستقطب التجار من مختلف الجهات، ولم يغفل وصف الضرائب والرسوم المفروضة على السلع، وتأثيرها على النشاط التجاري ومعيشة السكان.

ويقدم التجاني كذلك لمحات عن الحرف التقليدية مثل النسيج والدباغة وصناعة الفخار، مبرزا دورها في دعم الاقتصاد المحلي وتوفير فرص العيش، ومن خلال هذا الوصف تتضح العلاقة بين النشاط الاقتصادي والبنية الاجتماعية، حيث يعكس الاقتصاد مستوى الرفاهية أو الفقر ويؤثر في تنظيم الحياة اليومية للسكان[1].

3-1- الجانب العلمي والثقافي

3-3 الحركة العلمية والمؤسسات التعليمية

يتجلى الجانب العلمي في رحلة التجاني من خلال اعتماده على الوصف الدقيق للأحداث والمعالم، وسعيه إلى نقل الحقيقة قبل عملية التدوين والسرد الأدبي، وقد أكد التجاني هذا المنحى العلمي في مقدمة رحلته حين أشار إلى أن عمله يتضمن ''وصف ما شاهدته في هذه السفرة المباركة من البلاد، وذكر أحوالها وصفاتها، وبيان طرقها ومسافاتها، والإشارة إلى مدنها وأعيانها، وأحوال من اشتملت عليه من أصناف العوالم، وما تتميز به من آثار ومعالم''، وهو ما يعكس حرصه على التوثيق الموضوعي إلى جانب التوظيف الأدبي[2].

كما يتضح في نص الرحلة الجمع بين النظم والنثر، مما يعكس تداخل البعدين العلمي والبلاغي في بناء النص الرحلي. ومن هذا المنطلق، يمكن مقاربة رحلة التجاني من

[1] خضر موسى محمد حمود، المرجع السابق، ص178.
[2] التجاني، المصدر السابق، ص14.

خلال عدة مناهج، خاصة المنهج الوصفي والاجتماعي، إذ يقدم وصفًا دقيقًا للمدن والمعالم العمرانية، كالأسوار والمساجد والحمامات والمدارس، إلى جانب اهتمامه برصد العادات والتقاليد الاجتماعية، كما يعتمد الرحالة على الملاحظة المباشرة والتجربة الشخصية في نقل مشاهداته، فلا يكتفي بوصف الأماكن، بل يعبر أحيانًا عن انطباعاته ودهشته تجاه بعض المعالم البارزة. ويتجلى ذلك في وصفه لحصن الجم، حيث يصفه بأنه «أعظم حصون إفريقية وأشهرها»، مشيرًا إلى ضخامته وما يتميز به من خصائص هندسية وعمرانية. وبذلك تجمع رحلة التجاني بين دقة الوصف وحضور الانطباع الشخصي، مما يمنحها قيمة علمية وأدبية في آن واحد. [1].

ويعكس هذا التفاعل بين الوصف الموضوعي والانطباع الشخصي طبيعة الكتابة الرحلية بوصفها مصدرا مهما لدراسة التاريخ الاجتماعي والثقافي، كما تكشف الرحلة عن اهتمام واضح بالحركة العلمية والمؤسسات التعليمية في البلاد التي زارها التجاني، حيث لا يقتصر وصفه على العمران والمظاهر المادية فقط، بل يمتد إلى إبراز الأوضاع الثقافية والمعرفية، مما يجعل رحلته وثيقة تجمع بين التاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا في آن واحد[2].

لم يغفل التجاني الجانب الأدبي في المناطق التي تناولها في رحلته، بل اهتم به باعتباره عنصرًا مهمًا من عناصر الهوية الثقافية للمجتمعات التي مرّ بها. فقد أورد في نصه أخبارًا عن عدد من الأدباء والشعراء، وتناول إسهاماتهم الأدبية باعتبارها مظهرًا من مظاهر النشاط الفكري والعلمي الذي عرفته تلك الحواضر. ويتضح ذلك في حديثه عن أهل

[1] التجاني، المصدر السابق، ص57.
[2] بوشايب أسماء علجية، المرجع السابق، ص407.

سوسة، الذين عُرفوا باهتمامهم بالشعر والبلاغة، مما جعل المدينة بيئة حاضنة للمواهب الأدبية ومركزًا لظهور عدد من الشعراء[1].

وقد أشار إلى كثرة الشعراء المنتمين إليها، مبرزًا مكانتهم في البيئة الثقافية العامة، ومبينا ما امتازوا به من قدرة على الإبداع اللغوي والتعبير الفني. ولم يكتفِ بالإشارة العامة، بل توسع في ذكر بعض أعلامهم، فقدم لمحات عن سيرهم وأدوارهم في الحياة الأدبية، كما أورد نماذج من أشعارهم التي تعكس مستوى رفيعًا من الذوق الفني والقدرة التعبيرية، ومن خلال ذلك، يتضح أن التجاني لم يكن مؤرخًا للجغرافيا فقط، بل كان أيضًا ناقلًا للتراث الأدبي، حريصا على توثيق ملامح الحياة الثقافية وربطها بالسياق الاجتماعي والحضاري الذي نشأت فيه[2].

3-4- العلماء الذين ذكرهم وتأثيرهم

يتضح من خلال نص الرحالة أن اهتمامه بالعلماء كان بارزا ومركزا، إذ لم يكن يمرّ بقرية أو مدينة إلا ويحرص على ذكر علمائها وفقهائها ومحدثيها، تقديرا لمكانتهم العلمية والدينية. فقد أولى عناية خاصة بعلماء الحديث على وجه الخصوص، وهو ما يرتبط بتكوينه العلمي وميوله المعرفية، فجعل من الرحلة سجلا لتوثيق سير العلماء وأخبارهم ومؤلفاتهم وأنسابهم وتلاميذهم ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عن علماء صفاقس، حيث أشار إلى بعض الأعلام مثل أبي عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمود الصدفي[3] المعروف بابن الضابط،

[1] ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص97.

[2] ترشاق سعاد، المرجع نفسه ، ص97.

[3] أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن حمود الصدفي، المعروف بابن الضابط، هو أحد علماء صفاقس وشعرائها في عصره، جمع بين علم الحديث والأدب، واشتهر برحلاته العلمية الواسعة في المشرق والأندلس. أخذ العلم عن كبار المحدثين، وعلى

وبيّن مكانته العلمية ورحلته إلى المشرق وأخذه عن كبار العلماء، مما يعكس حرصه على إبراز التواصل العلمي بين المشرق والمغرب[1].

كما توقف عند شخصيات دينية وعلمية بارزة مثل أبي إسحاق بن أحمد بن علي بن سالم[2]، الذي قضى حياته في طلب العلم وطواف العلماء، وذكر قبره وزيارته والدعاء عنده، مما يدل على البعد الروحي في تقديره للعلماء والصالحين، ولم يصف العلماء فحسب، بل امتد إلى أسرهم وذرياتهم، مثل حديثه عن ولده أبي الطاهر وابنه عبد الله الأديب الشاعر، حيث أبرز الجانب الأدبي والشعري في هذه الأسر العلمية[3].

كما أبدى اهتمامًا خاصا بعلماء الحديث، فذكر من أعلام المهدية الفقيه القاضي أبا عمرو عثمان بن عتيق القيسي المعروف بابن عربية، مستعرضا مؤلفاته الكثيرة في الحديث والأدب والسيرة، مما يعكس سعة علمه وتنوع إنتاجه، ويلاحظ أن الرحالة كان يربط بين

رأسهم الحافظ أبو نعيم الأصبهاني الذي لازمه وكتب عنه كثيرا، حتى قيل إنه دوّن عنه مائة ألف حديث، مما يدل على سعة روايته وتمكنه في علم الحديث، كما درّس في الأندلس وأفاد علماؤها، ثم عاد إلى القيروان، وتولى مهام دبلوماسية حين أُرسل رسولًا إلى القسطنطينية، فكان بذلك عالما رحالة ومحدّثًا ذا مكانة علمية مرموقة.أنظر: محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري – محمد محفوظ، الطبعة: الأولى، 1988م، ج2، ص273.

[1]ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص98.

[2]أبو إسحاق بن أحمد بن علي بن سالم هو أحد العلماء والصالحين الذين عُرفوا بالعبادة والعلم، حيث قضى جزءا كبيرا من حياته في الرحلة وطلب العلم وملازمة العلماء والصالحين. وقد تميز بالاهتمام بالقرآن الكريم تلاوةً وتدبرًا حتى وُصف بأنه لازم قراءته إلى وفاته، مما يدل على شدة تعلقه بالعبادة والزهد، كما يُذكر أنه كان من أهل الصلاح، واشتهر بين الناس بحسن السيرة والاستقامة، وقد زار قبره ودعا عنده، وهو ما يعكس المكانة الروحية التي كان يحظى بها بين معاصريه، إضافة إلى أثره في ترسيخ القيم الدينية والسلوكية في بيئته، أنظر: الذهبي – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي،(748هـ)، سير أعلام النبلاء، أضواء السلف، العلو للعلي الغفار – 1416 هـ- 1995م، ج7، ص46.

[3]ترشاق سعاد، المرجع نفسه، ص99.

السيرة العلمية لهؤلاء العلماء وسياقهم التاريخي والاجتماعي، بل ويتوسع أحيانًا في ذكر أخبارهم واتصالهم بالسلطة أو بالأمراء، كما فعل عند حديثه عن علاقته بالأمير أبي زكريا[1]، مما يجعل نصه وثيقة تجمع بين التوثيق التاريخي والسرد الأدبي والبعد الثقافي[2].

[1]أبو يحيى زكرياء الأول هو أبو يحيى زكرياء بن أبي إسحاق إبراهيم الحفصي، أحد أبرز حكام الدولة الحفصية في مرحلة مبكرة من تأسيسها، وُلد في سياق سياسي مضطرب أعقب ضعف الدولة الموحدية، ثم بويع على رأس الدولة الحفصية، فكان من أوائل من أسهموا في تثبيت أركان الحكم الحفصي في إفريقية (تونس وما حولها)، وقد تميز عهده بمحاولة تنظيم شؤون الدولة وتدعيم سلطتها المركزية، إضافة إلى اهتمامه بالجوانب العلمية والثقافية، إذ تشير المصادر التاريخية، ومنها ما أورده ابن الشماع، إلى أن أبا يحيى زكرياء الأول كان ذا صلة وثيقة بأهل العلم والأدب، حيث شجع العلماء، واستقطبهم إلى بلاطه، مما ساهم في تنشيط الحركة الفكرية في عصره، كما عُرف عنه الميل إلى مجالسة الأدباء والفقهاء، والاهتمام ببعض مظاهر الرعاية الثقافية، وهو ما جعل حكمه يتسم بجمع بين السياسة والرعاية العلمية. وبذلك يُعد أبو يحيى زكرياء الأول من الشخصيات المؤسسة في التاريخ الحفصي، سواء من حيث بناء الدولة أو من حيث إرساء تقليد ثقافي وعلمي رافق بدايات هذا الكيان السياسي في المغرب الإسلامي، أنظر: ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988، ص 56.

[2]ترشاق سعاد، المرجع السابق، ص99.

خلص هذا الفصل إلى أن رحلة أبي محمد التجاني تمثل مصدرًا تاريخيًا بالغ الأهمية لفهم واقع المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، إذ قدمت صورة شاملة ومتكاملة عن مختلف جوانب الحياة آنذاك.

فقد أبرزت الرحلة طبيعة النظام السياسي القائم على مركزية السلطة، مع حضور واضح للطابع العسكري والجبائي، وتفاوت في مدى خضوع الأقاليم للسلطة المركزية.

كما كشفت عن واقع أمني وعسكري متباين، يتميز بالاستقرار النسبي في الحواضر مقابل الاضطراب في المناطق البعيدة والطرق الصحراوية، إضافة إلى دور التحصينات والقلاع في حماية المجال الحيوي. وفي الجانب الاجتماعي والاقتصادي، عكست الرحلة بنية قائمة على الانتماء القبلي، مع تنوع في الأنشطة الاقتصادية بين الزراعة والتجارة والحرف، وتأثر واضح بالعوامل الجغرافية والطبيعية.

أما في الجانب العلمي والثقافي، فقد أبرزت الرحلة أهمية الحركة العلمية وتعدد العلماء والمؤسسات التعليمية، إلى جانب اهتمام الرحالة بتوثيق سير العلماء والأدباء وربطها بالسياق الاجتماعي والسياسي. كما اتضح أن منهج التجاني يجمع بين الملاحظة المباشرة والتوثيق التاريخي، مما يمنح نصه قيمة علمية تتجاوز الوصف إلى التحليل.

وبذلك، يتبين أن رحلة التجاني ليست مجرد سجل جغرافي، بل وثيقة حضارية شاملة تعكس تداخل الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بناء صورة متكاملة عن مجتمع المغرب الإسلامي في تلك المرحلة.

خـــاتـــمة

في ختام هذه الدراسة التي تناولت رحلة التيجاني من خلال تحليل إطارها العام، ومنهج صاحبها، ومضامينها التاريخية والجغرافية والحضارية، يمكن التأكيد على أن هذه الرحلة تمثل مصدرًا علميًا وأدبيًا بالغ الأهمية لدراسة بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط. فقد تجاوز التيجاني حدود الرحلة باعتبارها انتقالًا في المكان وتسجيلًا للمشاهدات، ليجعل منها وسيلة للمعرفة والتوثيق والكشف عن مختلف مظاهر الحياة في المجتمعات التي مر بها.

وقد أظهر قدرة واضحة على الملاحظة والوصف، والربط بين ما عاينه بنفسه وما نقله عن الروايات والمصادر، الأمر الذي أكسب نصه قيمة معرفية متميزة، وجعله شاهدًا على مرحلة تاريخية وحضارية غنية بالتنوع والتحولات.

وقد أظهرت الدراسة أن المنهج الذي اتبعه التيجاني يقوم على الجمع بين المشاهدة المباشرة والاستفادة من الأخبار والروايات، مع عناية واضحة بوصف الأمكنة وتحديد خصائصها وتسجيل ما يرتبط بها من أحداث وشخصيات ومعالم.

ومن خلال هذا الأسلوب استطاع أن يقدم صورة واسعة عن المجال المغاربي، فلم يقتصر اهتمامه على المدن ومظاهر العمران، بل امتد إلى الطرق والقرى والقبائل والمراكز التجارية والعلمية. كما يتضح أن الرحلة تحمل تداخلًا بين الجانب الموضوعي والجانب الذاتي، إذ تظهر شخصية الرحالة في انتقاء المشاهد وإبداء الأحكام والتعليق على بعض الظواهر، وهو أمر يرتبط بطبيعة أدب الرحلات.

ولذلك فإن الاستفادة من الرحلة كمصدر تاريخي تقتضي قراءتها قراءة نقدية تراعي ظروف إنتاجها، وتميز بين المشاهدة المباشرة والرواية المنقولة والانطباع الشخصي. وعلى المستوى السياسي والاجتماعي، كشفت الرحلة عن جوانب متعددة من واقع بلاد المغرب الإسلامي، حيث تناولت

طبيعة السلطة والأنظمة الحاكمة والعلاقات بين مراكز الحكم والمناطق التابعة لها، كما سجلت مظاهر الاستقرار والاضطراب وأثر الأوضاع الأمنية في حياة السكان وحركة التنقل، أما اجتماعيًا، فقد قدم التيجاني معطيات مهمة حول العادات والتقاليد وأنماط الحياة والبنية القبلية، وأبرز أهمية النسب والانتماء في تشكيل الهوية والمكانة الاجتماعية.

وتكتسب هذه المعطيات أهمية خاصة لأنها تسمح بفهم المجتمع من الداخل، والكشف عن طبيعة العلاقات التي كانت تربط بين أفراده وجماعاته، كما تجعل الرحلة مادة صالحة للإفادة منها في الدراسات التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية.

أما من الناحية الاقتصادية والعمرانية، فقد أظهرت الدراسة أن الرحلة ترصد تنوعًا واضحًا في الأنشطة الاقتصادية، من زراعة وتجارة وصناعة وحرف، إلى جانب إبراز أهمية الأسواق والقوافل والطرق التجارية في تنشيط الحركة الاقتصادية وربط مختلف المناطق. كما اهتم التيجاني بوصف المدن والقرى والمعالم العمرانية والطرق، مما يوفر مادة مهمة لدراسة التنظيم الحضري والعمراني وطبيعة العلاقة بين الإنسان والمجال.

وتكشف هذه الأوصاف كذلك عن ارتباط الاقتصاد بالأوضاع السياسية والأمنية والجغرافية، إذ كان استقرار المدن وتأمين الطرق من العوامل الأساسية في ازدهار التجارة واستمرار حركة القوافل، وهو ما يعكس ترابط مختلف عناصر الحياة الحضارية وعدم إمكانية دراسة كل جانب منها بمعزل عن الجوانب الأخرى.

وفي المجال العلمي والثقافي، أبرزت رحلة التيجاني حيوية الحياة الفكرية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي، من خلال ما أوردته من أخبار العلماء والفقهاء والأدباء، والإشارة إلى المؤسسات والفضاءات التي احتضنت النشاط العلمي، فضلًا عن حضور الشعر والأدب في ثنايا النص.

ومن خلال هذا التنوع في الموضوعات، يتضح أن رحلة التيجاني ليست مجرد نص وصفي، بل هي مرآة تعكس جوانب متعددة من الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية والعمرانية، وهو ما يمنحها قيمة حضارية شاملة ويجعلها مصدرًا مهمًا للباحثين في عدد من التخصصات.

إن رحلة التيجاني تمثل نموذجًا متميزًا لأدب الرحلات العربي، يجمع بين البعد العلمي والتوثيقي والبعد الأدبي والذاتي، ويعكس قدرة الرحالة العربي على ملاحظة الواقع وتسجيل تفاصيله وتحليل بعض مظاهره، وتظل شاهدا مهمًا على الحضارة المغاربية في العصر الوسيط، ونصًا مفتوحًا على قراءات متعددة، بما يجعل إعادة دراستها وتحليلها ضرورة علمية تسهم في تعميق فهم تاريخ بلاد المغرب الإسلامي وإبراز إسهامه في الحضارة العربية الإسلامية.

وأخيرا، يتضح أن تداخل الذات بالموضوع، والمشاهدة بالرواية، في رحلة التيجاني لا ينتقص من قيمتها المعرفية والتاريخية، وإنما يقتضي إخضاع مادتها لمنهج نقدي يراعي طبيعة هذه المكونات، مع مقارنتها بالمصادر التاريخية الأخرى للتحقق من الأخبار والمعطيات الواردة فيها. كما تمثل الرحلة مجالًا خصبًا لدراسات مستقبلية تتناولها من زوايا لغوية وأسلوبية ومقارنة، أو تركز على جوانب محددة من الحياة، كالجغرافيا والعمران والاقتصاد والمجتمع والعلم والثقافة.

الملاحق

1. كتاب رحلة التجاني

➢ تعريف بالكاتب:

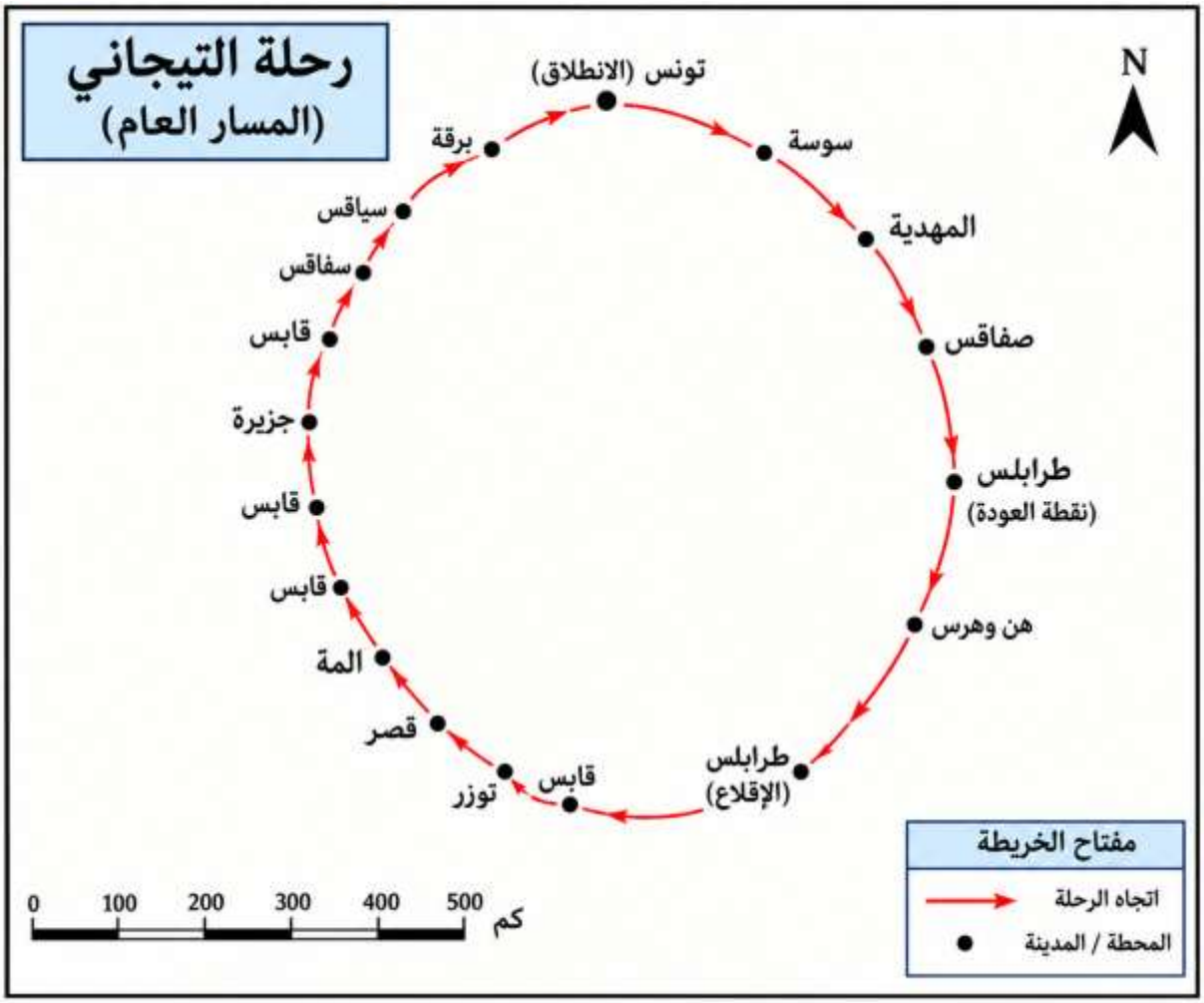


هو أبو احمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبو القاسم التجاني، ولد بحضرة تونس مابين 670-675 ه، تربى في حجر أبيه العالم الأديب وهو أول من لقنه القراءة والكتابة كما صرح الابن غير مرة فيقول مثلا: وقد أخبرني بهذا الحديث الولد قراءة عليه قال أخبرنا الشيخ الحافظ محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (أي الابار)، واقبل من صغره على حضور دروس الشيوخ في التفسير والحديث وأنواع العلوم ما بين الدينية ولسانية وأدبية حتى ترعرع وحصل على ملكة تمييز.

➢ أهم مؤلفاته:

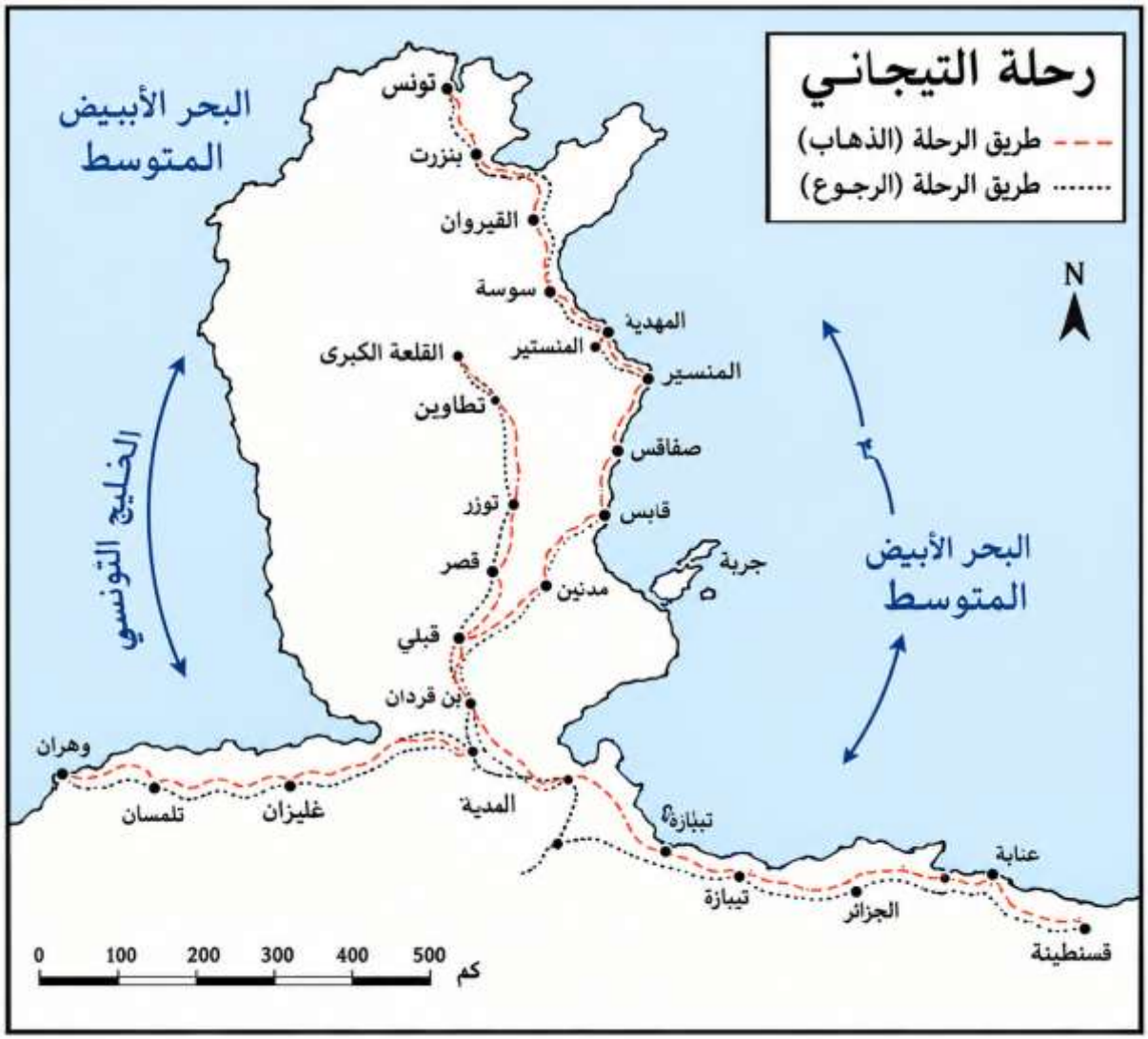
- ✓ كتاب أداء اللازم في شرح مقصورة حازم؛
- ✓ كتاب بيان فوائد الشفاء وضعه كشرح لكتاب الشفاء بتعريف المصطفى " للقاضي ابي الفضل عياض بن موسى؛
- ✓ كتاب الدر النظيم؛
- ✓ كتاب تقييد على المسند صحيح مسلم؛
- ✓ تقييد على المسند صحيح البخاري؛
- ✓ كتاب نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين.

ملحق رقم02: ملحق يوضح رحلة التيجاني



نجـــاة غقـــالي، الســـارد فـــي رحلـــة التجـــاني، مجلـــة الآداب والعلـــوم الإنســـانية، المجلـــد 14، العـــدد 02، جامعة الحاج لخضر - باتنة 1-ص 206.

ملحق رقم0: ملحق مناطق رحلة التيجاني



-شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص143.

قائمة المصادر والمراجع

I. القرآن الكريم

II. أولا: المصادر:

1) ابن الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988.

2) البكري أبي عبيد الله – المسالك والممالك 2 حققه جمال طلبا دار الكتب العلمية – بيروت 2003م.

3) التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد ، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس 1981.

4) الجرجاني، التعريفات تحقيق عبد المنعم الحقني دار الرشاد القاهرة، 1991م.

5) الدمشقي ابن كثير – إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، البداية والنهاية، دار عالم الكتب، 1424هـ / 2003م، جزء 18.

6) الذهبي – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، ط25، المكتبة الاسلامية، ج19.

7) الذهبي، سير أعلام النبلاء، أضواء السلف، العلو للعلي الغفار – 1416 هـ – 1995 م، ج7.

8) السلمى، التفسير، جاء تحقيق سيد عمران دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.

9) الفتح بن محمد بن خاقان (1968م). قلائد العقيان في محاسن الأعيان. تحقيق محمد العناني (ط. تحقيق محمد العناني). القاهرة: المكتبة العتيقة، ج 1.

10) كردي إبراهيم علي، أدب الرحل في المغرب والأندلس، الهيئة العامة السورية للكتاب – 2013م.

11) مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار كاتب مراكش من كتاب القرن السادس الهجري الثاني عشر (ميلادى) نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ط ، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م

12) مقديش محمود، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواري – محمد محفوظ، الطبعة: الأولى، 1988م، ج2.

-ثانيا : المراجع :

المراجع باللغة العربية :

1) -إدريس عبد النبي حامد الجوبر، أ. خليفة خليفة يوسف، أ. ياسمينة محمد حسين، تأسيس مدينة المهدية دراسة في النشأة التاريخية والعناصر المعمارية، المجلة الليبية العالمية، جامعة بنغازي، العدد السادس والستون / ديسمبر / 2022.

1) بن عامر احمد، الدولة الحفصية صفحات خالدة من تاريخنا المجيد، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، أكتوبر 1974م، ج18.

1) بن عمور خالد محمد، السياحة التراثية المستدامة بمنطقة سوسة الواقع والأفاق، مجلة المختار للعلوم الإنسانية 07 (1)، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة عمر المختار – البيضاء، 2008م.

2) بوشايب أسماء علجية، الطيب زريمش، قراءة في أدب الرحلة "رحلة التجاني أنموذجا"، مجلة آفاق علمية، المجلد 15 العدد : 02، جامعة، الجزائر 2، الجزائر، 2023م.

2) بيشوب موريس، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة على السيد على، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

3) ترشاق سعاد، الرحلات المغربية القديمة بين الأدب والنقد الإثنوجرافي رحلة التجاني (التقييد) أنموذجا، مجلة التراث العدد 31، المجلد الأول، أوت 2019.

ثالثا–المجلات:

4) خضر موسى محمد حمود، أدب الرحلات، أشهر أعلام العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى لبنان، 2011.

2) الشريف محمد الهادي ، تاريخ تونس، الطبعة الثالثة، دار سراس للنشر، تونس، 1993م.

5) عطا الله شوقي الجمل، أضواء على رحلة التجاني في البلاد التونسية وطرابلس وأهميتها التاريخية والأدبية، العدد 5، 1 مارس 1976.

3) لقبال موسى، المغرب الإسلامي الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر – 1951.

6) نجاة غقالي، السارد في رحلة التجاني، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 14، العدد 02، جامعة الحاج لخضر - باتنة 1- 2021.

7) هندي حازم وطن ، المكانة التجارية والبحرية لطرابلس الغرب في العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب / العدد 77.

رابعا–المواقع الالكترونية:

1)عمرو أبو الفضل، التيجاني صاحب أقدم رحلة في بلاد أفريقيا، 7 ديسمبر 2012، 11:43، مقال على موقع

https://www.aletihad.ae/article/116958/2012/

2) قاسم روعة، سوسة التونسية جوهرة الساحل ودرته الساحرة التي امتزجت فيها الأصالة بالحداثة، 1نوفمبر 2025، 11:34، مقال على موقع https://www.alquds.co.uk/%

3)ترشاق سعاد، الرحلات المغربية القديمة بين الأدب والنقد الإثنوغرافي رحلة التجاني أنموذجا"، مجلة التراث العدد 31 ، المجلد الأول، أوت 2019. Archiqoo، برج القسطيل، 2016، 11:43، مقال على موقع

https://archiqoo.com/locations/borj_el_kastil_ar.php

4)العربية، ابن بسام الشنتريني، والحفاظ على تراث الأندلس، 01 يناير 2017 م، 12:56، مقال على موقع:

https://www.dar-alifta.org/ar/ourreligion/details/4960/

فهرس المحتويات

بسملة

شكر وعرفان

اهداء

–تمهيد.....7

– نسبه ونشأته.....9

–حياته العمية.....10

المطلب الثاني: مكانته العلمية ومؤلفاته.....11

المطلب الثالث: الظروف السياسية والفكرية لعصره 13

المبحث الثاني: التعريف بالرحلة وسياقها التاريخ 15

المطلب الأول: دوافع الرحلة وأهدافها.....15

المطلب الثاني: المسار الجغرافي للرحلة 17

القيمة التاريخية للرحلة كمصدر 19

–خلاصة الفصل..... **Erreur ! Signet non défini.**

–تمهيد..... **Erreur ! Signet non défini.**

1_1 المنهج التاريخي عند التيجاني 24

1– 2 مصادره المعتمدة (المكتوبة و الشفوية): 24

2–2 أسلوب التوثيق والنقد.....26

1–3 نظرته النقدية و تحليله للأحداث 27

2– المنهج والجغرافي و الوصف العمراني.....28

2–2 عنايته بالجوانب الاقتصادية و الاجتماعية.....30

3–2 المقارنة بين مشاهداته الشخصية و الروايات المنقولة.....32

–خلاصة الفصل..... **Erreur ! Signet non défini.**

–تمهيد..... **Erreur ! Signet non défini.**

1- .. الجانب السياسي.....39
1-1- وصف الأنظمة السياسية.....39
1-2- رصد الأوضاع الأمنية والعسكرية 41
2- الجانب الاجتماعي والاقتصادي 43
2-1- الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد 43
2-2- الأنشطة الاقتصادية والتجارية 45
3-1- الجانب العلمي والثقافي.....47
خلاصة الفصل.....Erreur ! Signet non défini.
الخاتمة..... المصادر والمراجع..... Erreur ! Signet non défini.62

–ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة رحلة عبد الله بن محمد التيجاني باعتبارها مصدرًا مهمًا لدراسة تاريخ وحضارة بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وتهدف إلى التعريف بالتيجاني ورحلته، وبيان سياقها التاريخي وقيمتها العلمية، مع الكشف عن منهجه في تدوين الأخبار والمشاهدات. كما تسعى إلى إبراز أهم المضامين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تضمنتها الرحلة، واعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي لتحليل النص وربط معطياته بظروف عصره، وتوصلت إلى أن رحلة التيجاني تقدم مادة غنية ومتنوعة لفهم المجتمع والمكان في المغرب الإسلامي، مع ضرورة التمييز بين المشاهدات المباشرة والأخبار المنقولة عند توظيفها كمصدر تاريخي.

–الكلمات المفتاحية: رحلة التيجاني، أدب الرحلة، المغرب الإسلامي، العصر الوسيط، المصادر التاريخية.

Summary:

This study examines the travel account of Abd Allah ibn Muhammad al-Tijani as an important source for studying the history and civilization of the Islamic Maghreb during the medieval period. It aims to introduce al-Tijani and his travel account, highlighting its historical context and scholarly value, while examining his method of recording information and observations. The study also seeks to identify the main political, social, economic, and cultural aspects reflected in the travel account, It adopts the historical and descriptive-analytical approaches to analyze the text and relate its contents to the circumstances of its time, The study concludes that al-Tijani's travel account provides rich and diverse material for understanding society and places in the Islamic Maghreb, while emphasizing the need to distinguish between his direct observations and the information he transmitted from other sources when using it as a historical source.

Keywords: Al-Tijani's Travel Account, Travel Literature, Islamic Maghreb, Medieval Period, Historical Sources.